

مئون الأدب المأثور

النوع التعلق

٢

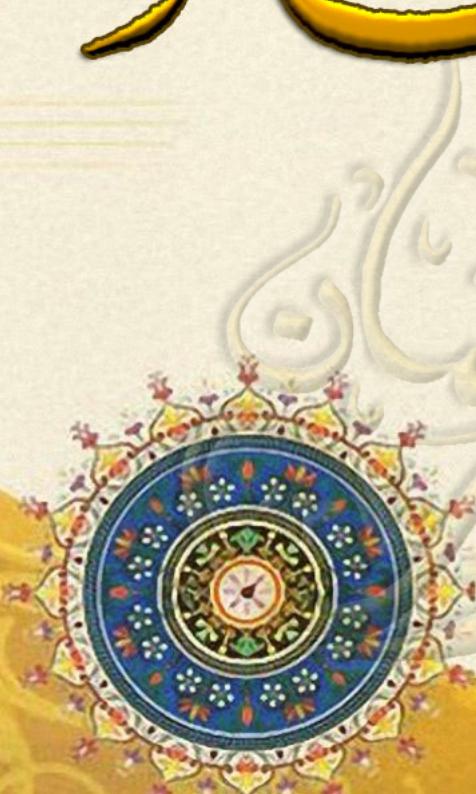
# لِرْتَشَادُ

بِطْلِم

الدكتور شوقي صيّف



دار المعرف





الرِّمَادِ





فنون الأدب العربي

الفن الفناني

٢



# الرِّمَادِ

بِقَلْمِ

الدَّكْتُور شوقي ضييف

الطبعة الرابعة



دار المعرفة

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل القاهرة ح ٢٠٠٣

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مُفْتَرَّة

الرثاء من الموضوعات البارزة في شعرنا ، إذ طالما بكى شعراًًنا من رحلوا عن دنياهم وسبقوهم إلى الدار الآخرة ، وهو بكاء يتعقق في القدم. منذ وجود الإنسان ، ووجَدَ أماته هذا المصير المحزن : مصير الموت والفناء الذي لا بد أن يصير إليه ، فيصبح أثراً بعد عين ، وكأن لم يكن شيئاً مذكورة .

ولكل أمة مرتباً ، والأمة العربية من الأمم التي تحتفظ بتراث ضخم من المراثي ، وهي تأخذ عندها ألواناً ثلاثة ، هي الندب والتأبين والعزاء . أما الندب فبكاء الأهل والأقارب حين يتصف بهم الموت ، فيُئن الشاعر ويتفجع ، إذ يشعر بلطمة مروعة تصوب إلى قلبه ، فقد أصابه القدر في ابنه أو في أبيه أو في أخيه ، وهو يتربّع من حول الإصابة تزح الذبح ، فيبكي بالندع الغزار ، وينظم الأشعار يبيت فيها لوعة قلبه وحرقه . وقد ينظر فيرى الموت مطلقاً نصب عينيه ، وهو ينحدر راغماً إلى حفرته ، ولا ناصر له ولا معين ، ويصبح ولا ينفعه صياحه ، فقسمُ المهاوية يقترب منه ويوشك أن يلتقطه ، فيبكي ويلحن بكاء على قياثة شعره تلحيناً مشجياً كله آلام وحسرات .

والشاعر لا يندب نفسه وأهله فحسب ، بل يندب أيضاً من يتزلون منه منزلة النفس والأهل من يحبهم ويؤثثهم ، ومراثي الشيعة من خير الأمثلة التي تصور ذلك ، إذ نجدهم يرسلون الدمع مدراراً كأنه لا يريد أن يمْسِ ، وتسلّل كلماتهم وأشعارهم المخزنة ، وكأنها تسيل من جروح لا ترقأ في القلوب والأفتشدة . ومثل مراثي الشيعة مراثي الدول ومراثي الأوطان حين تسقط مهيضةً

الجناح في يد الأعداء ، فينوح عليها الشعراء مصوريين محتها الكبri وكارتها العظمى .

وليس التأيين نواحًّا ولا نشيجًا على هذا التحو ، بل هو أدنى إلى الثناء منه إلى الحزن الحالص ، إذ يخزّن نجم لامع من سماء المجتمع ، فيُشيد به الشعراء منهين بمنزلته السياسية أو العلمية أو الأدبية ، وكأنهم يريدون أن يصوروا خسارة الناس فيه . ومن هنا كان التأيين ضريرًا من التعاطف والتعاون الاجتماعي ، فالشاعر فيه لا يعبر عن حزنه هو وإنما يعبر عن حزن الجماعة وما فقدته في هذا الفرد المهم من أفرادها ، ولذلك يسجل فضائله ويلمح في هذا التسجيل وكأنه يريد أن يمحوها في ذاكرة التاريخ حفراً حتى لا تنسى على مر الزمن .

والعزاء مرتبة عقلية فوق مرتبة التأيين ، إذ ترى الشاعر ينفذ من حادثة الموت الفردية التي هو يتصدّرها إلى التفكير في حقيقة الموت والحياة . وقد يتّسّى به هذا التفكير إلى معانٍ فلسفية عميقـة ، فإذاً بنا نجوب معه في فلسفة الوجود والعدم والخلود . ومِرْدُ هذا كله أن الحياة ظل لا يدوم . عبارة يرددّها الشاعر الباهلي ويحملها الشاعر العيسي ، وما يزال الشعراء يحملّون فيها متّحدّين عن الخلود أو عن الفنان .

وذلك هي ألوان الرثاء في شعرنا حاولنا أن نصورها وأن نضمّ بديالتها إلى نهايتها في خطٍ طويـل من العصر الباهلي إلى العصر الحديث . ولم تعرّض ذلك في تفصيل ، وإنما عرضناه عرضاً مختصرـاً بقدر ما تسمح به حلقة قصيرة في هذه السلسلة التي تتحدث في لم يجاز عن فنون شعرنا الثنائي ، والله الماحد إلى التوفيق .

القاهرة في ٢٨ من مارس سنة ١٩٥٥

شوقي ضيف

# تمهيد

## ١

### الرثاء في أدبنا العربي

عرف العرب الرثاء منذ العصر الباхلي ، إذ كان النساء والرجال جميعاً ينلبون الموتى ، كما كانوا يقفون على قبورهم مؤبين لهم مُؤبنين على خصالمهم ، وقد يخلطون ذلك بالتفكير في مأساة الحياة وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت ، وأن ذلك مصير محتوم .

والصور التي بين أيدينا من هذا الرثاء صور راقية ، إذ نراها تعبر عن شعور عميق بالحزن والألم ، ومثل هذا التعبير تسبقه مراتب كثيرة من تغيرات ساذجة عن الموت والموتى . ولكن هذه التغيرات لا نجد لها في الشعر الباخلي ، لأنه كان قد فارق المراحل الأولى ، وانتهى إلى مرحلة فنية راقية .

ولا نرتاب في أن الرثاء بدأ عند العرب كما بدأ عند كثير من الأمم الأخرى بصورة تشبه أن تكون سحراً حتى يطمئن الميت في مرقله ، ولا تصيب روحه الأحياء من ورائه بشرّ ، ثم أخذ يفقد هذه الغاية مع الزمن ، وما زال حتى انتهى إلى الصور الباخالية من الإفصاح عن إحساس الناس العميق بالحزن قِبَل الموتى ، ومحاولة ذكر لهم بمجدهم وبيان فضائلهم التي ماتت بموتهم ، مع التفكير في التذر وقصور الناس أمامه ، وعيشه بهم ولتعييه بجياثهم وموتهم .

وقد يكون من أقدم صور الرثاء عندهم ما نقش على قبور الأقبية والأذواء في اليمن والأمراء في الحيرة وعند الفساسنة في الشام ، فعلى قبورهم كانوا يكتبون أسماءهم وألقابهم تخليداً لذكرهم وتعجیداً لأعمالهم ، وكأن هذه هي الصورة الأولى للتأبين والإشادة بفضائل الميت ، على أنها صورة ساذجة . أما الصورة الباخالية للتأبين بصورة معقدة ، لا بما فيها من طول فحسب ، بل بما فيها

أيضاً من وسائل فنية كثيرة ، إذ نرى شعراء الرثاء يهتمون بقوالب رثاهم وصيغة وينوعها تنوعاً واسعاً ، كما نجدتهم يهتمون بصورهم واستعاراتهم وتشبيهاتهم ، مع العناية التامة بموسيقاهم وأوزانهم ولللامامة بين أنغامهم وشعور الحزن الذي يتعمق قلوبهم وأفئدتهم .

وكان يساهم في هذا الفن النساء والرجال ، بل ربما كان للنساء الحظ الأوفر من القيام عليه ، إذ كن هن اللائي يَقْمِنُنَ على ندب الميت أيامآ ، بل ربما امتد قيامهن عليه سنوات ، وكن يَكْلُفنَ شعورهن ويلطممن خلودهن بأيديهن وبالعنال والخلود أحياناً . وقد يقمون بذلك في مجالس القبيلة وعلى القبور وفي المواسم العظام كوسم عُكاظ .

وطبيعي أن يتفوق النساء على الرجال في ندب الموت والنواح عليهم ، لأن المرأة أدق حسا وأرق شعوراً ، وأيضاً فإن حياة الرجال في العصر الباهلي كانت تقوم على القتل وسفك الدماء والتفاخر بالشجاعة والبطولة ، فكانوا يأنفون أن يقعدوا للبكاء وذرف الدموع كالنساء ، بل لقد ذهبوا يظهرون التجلّد والصبر على من يموت منهم ، يقول عمرو بن معد يكرب :

ك من آخر لي حازم بـأثره يبدى لخدأ  
أعرضت عن تذكرة وخافت يوم خلت جلدا

على آن الرجال لم يكونوا جميعاً مثل ابن معد يكرب ، فوراءه كثيرون كانوا يندبون وينوحون ، وخاصة على أبنائهم وأفلاذ أكبادهم .

وندب الموت والنواح عليهم هو الصورة الأولى في الرثاء الباهلي . ونجد بجانب هذه الصورة صورة ثانية من تأبين الميت وعدّ فضائله والثناء على خصاله والإشادة بصفاته . وتكثر هذه الصورة في تأبين الأصدقاء والأشراف ، بل قد نجدتها في رثاء الإخوة . وربما كان السبب في ظهورها ثم شيعتها أن كثيراً من كانوا يرثوهم كانوا يُقتلون في حروبهم الدائرة ، فأرادوا أن يبيّنوا عيّن المصيبة والحسارة بفقدتهم . وترافق هاتين الصورتين صورة ثالثة من العزاء والصبر

على توابع الدهر وحيد ثانه ، فالدنيا دار فراق لا دار خلود وبقاء ، وكل نفس فيها ذاتفة الموت ، فالموت حوض يرده الجميع ، وليس أمام الناس إلا الاستسلام للأقدار وما يأتي به القضاء .

ولما انتهت دولة المناذرة في الحيرة رثوها ، واستخرجوا منها العبر والعظات على أن كل ما في الدنيا زائل وأن البكاء لا يرد هالكاهملاك ولا ميتا مات . فالأقدار بيدها كينانها وقوتها ، ولا تزال ترمي بالسهام الأفراد والجماعات والقبائل والدولات .

وهذه الصور البخالية للرثاء استمرت في أدبنا العربي مع عصوره المختلفة ، تارة تنمو وتارة تتتطور ، تحت تأثير نمو العقل العربي من جهة ، وتطور حياة العرب واختلاف الأحداث عليها من جهة ثانية ، ولكنها في جملتها ترتد إلى هذه الصور البخالية ، وتشتت منها كما يشتق الفرع من أصله .

## ٢

## في الآداب العالمية

الرثاء يقترب بالموت ، وليس في العالم أمة لم تعرف الرثاء كما أنه ليس فيه أمة لم تعرف الموت ، فالرثاء وجد عند كل الأمم والشعوب بادية وراقية متحضر . ونحن نجد صوراً مبثوثة منه في الأدب الفرعوني القديم ، تارة منفصلة ، وتارة متصلة ببعض التخصص كقصة الآلهة : أوزيريس وسيط وإيزيس ، فإنه حين اعتدى سيت على أخيه أوزيريس وقطعه لربا ، وألقى به في صندوق باليم بكتبه إيزيس أخته وزوجته بكاء حارا ، وكان المصريون ييكونون معها في أعياده من كل عام . ولا ريب في أن ما نراه الآن في المآتم المصرية من « تعداد » النساء ولطمهن وتلطيخ وجوههن وروعهن بالطين يرجع إلى أقدم العصور ، ونفس تقاليدنا في الاحتفال بالموت والعزاء فيهم ، كل ذلك فيه آثار من آبائنا الأولين .

والرثاء مكان بارز في الشعر اليوناني القديم ، إذ اشتهر به شعراء مختلفون مثل أرخلوكوس وساغو وسيمونيدس ، وينبغي أن نشير هنا إلى أن كلمة « إليجي Elegy اليونانية التي تطلق عند الغربيين المحدثين على المرثية لم تكن تطلق هذا الإطلاق الحديث عند اليونان ، بل كانت تطلق على وزن خاص من أوزان الشعر الغنائي ، وقد يكون موضوعها سياسة أو أخلاقاً أو غير ذلك من موضوعات . على كل حال عرف اليونان القدماء الرثاء وشاع عندهم ، ونقله عنهم الرومان بين ما نقلوه من فنون شعرهم وألوانه المختلفة .

ومعروف أن الأدب الغربي الحديث احتوى الأمثلة اليونانية والرومانية ، ومن هنا شاع فيه الرثاء على نحو ما شاع عند اليونان والروماني ، فإذا سرنا مثلاً مع الشعر الإنجليزي وجدنا تشورس « أبيا هذا الشعر » ينظم قصيده الطويلة في زوجة « الدوق لانكستر » وقد سماها « كتاب الدوقة » . وما زال الشعراء الإنجليز ينظمون مراثي مختلفة حتى بذاتهم ملتن بمرثيته لسيداس « Ixycidas » وفيها يرى ريفياً من رفاقه في الجامعه ابتلعه اليم ، وسماه باسم ريني هو لسيداس ، ونحو بقصيده فيه منحى الشعر الريفي عندهم . ومن أروع المراثي الإنجليزية أدونيس « Adonais » لشلي ، وهي في رثاء الشاعر كيتس الذي مات في ريعان شبابه ، وأدونيس في الأساطير الإغريقية شاب جميل وقعت في شباك جماله فينوس ، فاتخذه شلي رمزاً لصاحبه . ولتنيسون مرثية طويلة في صديق له سماها في الذكرى « In Memoriam » وقد نسج فيها أفكاراً رائعة عن الحياة والموت . ومن المراثي الإنجليزية البدعة مرثية توماس جراي وقد دعاها « مرثية » كتبت في فناء كنيسة ريفية « وفيها لا يرى شخصاً بعينه ، وإنما يرى الطبقة الكادحة في الريف التي يموت أفرادها دون أن يتأملوا حظاً من الجهد والشهرة .

وفي الأدب الفارسي مرات كثيرة ، وهو يختذلون فيها أمثلة الشعر العربي ، وخاصة مراثي آل البيت ، فلهم فيها رواح لا تحصى . ويلقى الأدب التركي بالأدب الفارسي والعربي جميعاً في هذا الباب . واشتهر في عصر قريب منا شاعر م عبد الحق حامد بدیوانه « مقبر » وهو يرى فيه زوجه التي سبقته إلى الرفيق الأعلى .

وعلى هذه الشاكلة لا توجد أمة مهما أوغلت في البداءة أو صعدت في مراتي  
الحضارة إلا وهي تبكي موتاها بكاء يصور حزن الإنسان على أخيه ، بل لا  
بالغ إذا قلنا إنه يصور حزنه على نفسه ، فالقصة واحدة وكل يوم يسقط فصل  
من فصوصها ، ومن يبكي اليوم غيره يصبح بعد قليل من الزمن محولا إلى نفس  
المصير .



# أفضل الأوصاف

## النَّدْبُ

١

### معنى النَّدْبُ

النَّدْبُ هو النَّوحُ والبكاءُ على الميت بالعبارات المشجعة والألفاظ الحزنة التي تصدح القلوب التقاسية وتذيب العيون الجامدة ، إذ يولون النائحون والباكون ويصيحون ويعولون مسرفين في التنجيب والنشيغ وسكب الدموع .

وقد عرف العرب منذ العصر الباهمي المأتم حيث يجتمع النساء للصياح والعويل على الميت ، وظل ذلك في الإسلام ، إذ أباحه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم محرماً ما كان يقترب به من تمسّك للوجه بالخلود وحلق للروعوس . وإنما أباحه لما فيه من تنفيس عن أهل الميت وشفاء لصايبهم فيه ، ويروى الرواية أنه لما بكت نساء المدينة على قتلى غزوة أحدٍ من ذويهن قال الرسول : «لكن حمزة بن عبد المطلب لا يبكيه أحد» ، وكان قد قتل في هذه الغزوة ، فأصبح سُنّةً في نساء المدينة أن لا يقمن مائماً على مر العصور إلا بدانٍ بكاءهن بمحمة عَمَّ الرسول .

ونجد النساء الندبات في الباهمية يؤلفن الأشعار التي يتبنّن بها موتاهم ، ومع مضي الزمن انفصلت صناعة الندب عن صناعة الشعر ، فأصبح هناك مخترقون ومخترفات يُعولون في المأتم بأشعار تصنّع لهم . والفتريض يعني مكة المشهور في العصر الأموي هو أهم من احترفوا صناعة الندب في عصره ، فكان الشعراً إذا مات شريف أو شريفة صنعوا له أبياتاً ينوح بها ، وقالوا إنه

كان يتفوق تفوقاً ظاهراً على جميع الناحة والبكائين في الحجاز لما امتاز به من صوت حزين يمتهن بالأسى والشجع .

وكان الغَرِيفُس وغيره ينحوون على نَقْرِ الدَّفَوفِ وضرب الصنوج ، حتى يصبح النواح شيئاً مفرغاً . وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني يزخر بأصوات مخزنة غُنْيَتْ فِي الْمَآتمِ ، وكلها ذات رُقْمٍ موسيقية مضبوطة .

ووهما شرّقاً في العالم العربي أو غربنا وجدنا هذا الندب والنواح ، وهو في أصله إنما يكون على الأهل والأقارب ، وقد يبكي الشاعر نفسه ساعة الاحتضار حين يحس بالموت ، وقد كثُرَ له عن أيابه ، فيفرز إلى بعض أبيات يصوّر فيها كارثته ، أو يصور ألمه وأحزانه على فراق فردوسه الأرضي .

وقد يتحول هذا الندب والنواح إلى مآتم تدور مع الأعوام والسنين ، وكأنها مآسٍ كبيرة تُثْلِلُ من حين إلى حين . ويتبَعُه ذلك في وثاء آل البيت ، فقد بكاهم شيعتهم بكاء مرا ، وعقدوا لهذا البكاء مواسم عينوها في أيام السنة ، وأحالوها حزناً وسباداً .

ولم يبك شعراً في الأفراد والأسر فحسب ، بل يبكون أيضاً الدول التي دالت ، والبلدان التي تُحرّبت أو امتدت إليها أيدي الصليبيين أو مسيحيي الأسبان ، فهي الأخرى لها حظها في الندب والبكاء واللوامة والأنين .

## ٢

## نَدْبُ الْأَهْلِ وَالْأَقْارِبِ

لعل أقدم صور الندب والنواح في شعرنا العربي هي صورة نَدْبِ الأهل والأقارب والنواح عليهم . وللمرأة الباهالية في هذا المجال القِيسْطُ الأكبر والنصيب الأوفر ، إذ كانت تندب أباها وإنحنيها ، فما تزال تنوح على من يتفوق منهم حتى (١) أنفه ، وعلى من يموت قعضاً (٢) بالرماح والسيوف ،

(١) الموت حتى الأنف : الموت على الفراش .

(٢) قعده بالريح أو السيف : قتله في مكانه .

وما أكثر من كان يموت منهم في حروبهن الدائرة على المراحي .  
وكلنا نعرف كثرة أيامهم ووقائعهم في الباهالية ، وكان كل يوم  
يختلف ورائعه صرّعى ، وكل صریح تنبیه التوابد من أهلها وقبيلته . فكن =  
يلطمئن ويختمسن وجوههن وملحقن روعههن ويشقعن جيوههن ويقرعن صلورهن  
على من طوح به الأعداء أو طوحت به الأقدار إلى مهاوى الشبور .

وكتاب « مراثي شاعر العرب » للويس شيخو يصور هلى ما قالت به  
المرأة في هذا الباحب المظلم الحزين ، إذ كانت هي التي تعبر عن ألم القبيلة وحزنها  
على أبطالها ، وخاصة عقب الأيام والحروب ، ولم تكن تقصد إلى إظهار الحزن  
فحسب ، بل كانت تقصد أيضاً إلى إثارة القبيلة على خصومها ..

وأشهر من بكت واستبكت في الباهالية الخنساء ، إذ قتل أخوها معاوية في  
بعض غاراته ، فعقدت عليه مأتماً ضخماً من النواح ، وأثار ذلك أخاها صفرا ،  
فثار له ، ولكنه جرح جرحاً بليغاً أدى إلى وفاته . فعادت إلى نواحها  
بأشد ما صنعت على أخيها معاوية ، وكأنما سعّر صفر قلبها ، وأشعل  
صلورها بشعلة من الحزن لا تخبو ولا تهدأ . ولقت الإسلام . وأسلمت ،  
ومع ذلك ظلت ذكري صَفْرٍ عالقة بنفسها ، وفيه تتقول :

قَدَّى بِعِينِكَ أَمْ بِالْعَيْنِ عُوَارُ  
أَمْ ذَرَّفَتْ أَنْ خَلَّتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ<sup>(١)</sup>  
كَلَّ عَيْنٌ لِذِكْرِاهِ إِذَا خَطَرَتْ  
فَالْعَيْنُ تَبَسَّى عَلَى صَفْرٍ وَحْقَّهُ لَهَا<sup>(٢)</sup>  
وَدُونَهُ مِنْ جَدِيدِ الْأَرْضِ أَسْتَارُ<sup>(٣)</sup>  
تَبَسَّى خَنَاسُ وَمَا تَنْفَكَ مَا عَمَرَتْ<sup>(٤)</sup>

(١) الموار : الرمد ، ذرفت : قطرت قطرات متعاقبة .

(٢) الفيس : الماء الغزير ، ومدار : كثير .

(٣) الأسثار : الأسبمار ، وجدية الأرض كثابة عن أنه حات مديانا ، فارضه التي دفن فيها  
لا تزال جديدة لم تبل وللم تندثر .

(٤) خناس : النساء ، مقتر : ضعيفة .

تبكي خناس على صغرٍ وحقٍ لها  
إذ رأبها الدهرُ إن الدهر ضرارٌ<sup>(١)</sup>  
لها حنينان : إصغارٌ وإكبارٌ<sup>(٢)</sup>  
بكاء والمهنَّةِ صلتْ أليقتهَا  
ترهقى إذا نسيتْ حتى إذا ذكرتْ  
فأيتها هي إقبالٌ وإدبارٌ<sup>(٣)</sup>  
كانه عالمٌ في رأسه نارٌ<sup>(٤)</sup>  
ولأن صغيراً لائم المدح به

وهذه اللوعة المتقدة في فؤاد المتساء نجد لها تقدّيًّاً في فؤاد بعض الشعراء على إخواتهم، ولعل مُتَسْمِمَ بن نُوَيْرَة الشاعر الخضرمي أكثر الشعراء القدماء لوعة وحرقة على أخيه، وكان قد قتل في حروب الردة، فزناه رثاء حاراً لا يصلُّ إلا عن قلب مرمج وفؤاد ملئان، ومن قوله فيه:

لقد لامني عند القبور على البُكَاء صديقٌ لتذَرَّفِ الدَّموع السَّوَافِكَ  
يقول أتبكي كلَّ قبرٍ رأيتهُ لقبرٍ ثَوَى بين اللَّوْيَ فَاللَّهُ كَادِكَ<sup>(٤)</sup>

(١) رأياها الدهر : رأت منه ما يسوها .

(٢) الإصغار بالحنين : خفض الصوت به ، والإكبار : رفعه .

(٣) العلم : الجليل

(٤) لوى الرمل : منقطعه ، والد.كادك : جمع دكـلـك وهو الرمل المستوى .

فقلت له إن الشَّجَنِي يَبْعَثُ الشَّجَنِي فدُغْنِي فهـذا كـلـه قـبـرـ مـالـكـ

وقد ظل يبكيه حتى ابكيت عيناه من الحزن ، وحتى أسطخ عمر بن الخطاب على ما كان من قتل خالد بن الوليد له ، وصار نديه لأنبيه مصير الأمثال ، فهو يُروَى ويتمثل به في كل مكان ، ومن بديع ما قاله فيه :

أَرَى كُلَّ حَبْلٍ بَعْدَ حَبْلِكَ أَقْطَعَـاـ<sup>(١)</sup>  
وَكُنْتَ حَرِيًّا أَنْ تُحِبِّ وَتُشَمَّـاـ<sup>(٢)</sup>  
وَأَمْسَى تُرَابًا فَوْقَهُ الْأَرْضُ بَلْقَاعًاـ<sup>(٣)</sup>  
فَقَدْ بَانَ مُحَمَّداً أُخْرَى حِينَ وَدَعَاـ<sup>(٤)</sup>  
وَكُنَّا كَنَدْمَانِي جَذِيمَةَ حِقْبَةَـ<sup>(٥)</sup>  
لَمَّا تَرَقَنَا كَأْنِي وَمَالِكَـ<sup>(٦)</sup>  
وَلَوْ أَنِّي أَصَابَ مَتَالِعَـ<sup>(٧)</sup>  
سَقَ اللَّهُ أَرْضًا حَلَّهَا قَبْرُ مَالِكٍـ

والآيات من قصيدة طويلة حاول أن يتجلد في أوطا ، ولكن لم يلبث أن غلبه الحزن على أخيه فتحسر على فراقه ، وبكي لوداعه ، وإنه ليحييه من بعيد وهو يُؤنِّ الشكلي المقوحة الفؤاد ، مصوّراً عظيم ما نزل به من المصيبة الفادحة التي لو نزلت يحبيل لدكته دـكا . ولم يلبث أن استرسق قبره قطعـ

(١) أقطع : مقطوع .

(٢) البلقع : الأرض القفر .

(٣) بـانـ : فارق .

(٤) جـديـمةـ هوـ جـديـمةـ الـأـبـرـشـ ،ـ نـادـمـ مـالـكـاـ وـعـقـيـلاـ اـبـنـ فـارـجـ بـنـ كـعبـ ،ـ ثـمـ قـتـلـهـماـ ،ـ يـتـصـدـعاـ :ـ يـتـفـرـقاـ .

(٥) مـتـالـعـ وـسـلـيـعـ :ـ جـبلـانـ .

(٦) الـدـاهـبـ :ـ جـمـعـ ذـمـبةـ وـهـيـ الـقـطـعـةـ الـغـزـيرـةـ مـنـ الـمـطـرـ ،ـ وـالـغـوـادـيـ :ـ الشـعـبـ الـتـيـ تـنـدوـ بالـثـيـثـ ،ـ وـالـمـدـجـنـاتـ :ـ الـكـثـيـفـةـ الشـبـيـدـةـ السـوـادـ ،ـ وـأـمـرـعـ :ـ أـخـصـبـ .

السحاب الكثيفة حتى تخضر الأرض من حوله وتزهى به ويجد كنه ، ويصبح منها في روض بييج .

وما يزال الزمن يتقدم بنا حتى نلتقي بالعصر العباسى عصر الرق الفكري والاتساع فى الأحساس والمشاعر فتجد أبا تمام يرى أخاله رثاء باكيا ، وકأن كل بيت فيه يقطر دماغه بل دما ، فالحزن يجري في قلبه وفؤاده ، بل في أعطاف أبياته نفسها ، فهي تنبض به وتحتفق ، يقول :

إِنِّي أَظْنَى الْبَلَى لَوْ كَانَ يَفْهَمُه  
يَا يَوْمَهُ لَمْ تَدْعُ حُسْنَتَنَا وَلَا أَدْبَارَ  
اللَّهُ مَقْلَتَهُ وَالْمَوْتُ يَكْسِرُهَا  
يَرُدُّ أَنفَاسَهُ كَرْهًا وَتَعْنَاطِفُهَا  
يَا هَوْلَ مَا أَبْصَرْتُ عَيْنِي وَمَا سَمِعْتُ  
لَمْ يَبْقِيْ مِنْ بَلْدِنِي جُزْءٌ عَلِمْتُ بِهِ  
كَانَ الْلَّهَاقُ بِهِ أَهْنَانَا وَأَخْسَنَ بِي

وهو في هذه الأبيات يصور تصويراً دقيقاً صراع أخيه مع الموت ساعة الاحتضار ، وقد عرف كيف ينقل إلينا اللحظة بكل ما وخره فيها من إبر الألم والجزع ، حتى ليتحول إلى هيكل للأوصاب والأشجان ، فكل جزء فيه يملؤه وصب وشجن ووجع ، لما رأى وسع . لقد رأى أخيه الموت يكسر أخيه وينتفخ أنفاسه ، وإن كل نفس ليخترق حجاب سمعه بما فيه من حشرجة ، فتكاد تتقطع نيات قلبه هما وحزنا ، وإنه ليود أن يلحق بأخيه حتى لا تعاوده أشباح هذه الذكرى التي تضيئ على قلبه وتعتصر فؤاده احتصاراً .

ولذا كانت أصوات الناحية قد ارتفعت على مر العصور مع موت الإخوة فإن هذه الأصوات قد بحثت مع موت الأبناء وأفلاد الأكباد ، فإن حرارة الأمهات والآباء بهم تأكل قلوبهم وأفندهم إذ يرون كأن أجزاء وأعضاء من أجسادهم بُترت بترا ، وصدقت هذه الأغنية التي تقول في رثاء ولدها :

يا قُرْحةَ القلب والأحشاءِ والكبدِ يا ليت أمك لم تختلْ و لم تَلْدِ  
أيَّقْنَتْ بعْدَكَ أَنِّي غَيْرُ باقِيٍّ وكيف يبقى ذراعٌ زال عن عَضْدِ  
فهي تشعر شعوراً عميقاً لأن جزءاً منها واراه التراب ، وهي في طريقها إلى  
لتضمه إلى جسدها وصلوها . فحياتها قد انتهت بموته ، وهي تجتاز وادياً مظلماً  
من الشخص والألام ، وتقطعه بين التشنج والتثبيب ، حتى تصل إليه بعد النعْب  
وطول العناء والشقاء . وما أصدق بكاء الآب الذي هو ابنه تحت عينه من قمة  
جبل ، ففارقه روحه النور والمساعنة ، فراح يقول :

هَوَى ابْنِي مِنْ عَلَى شَرْقٍ يَهُولُ عَقَابَهُ صَدَدْ<sup>(١)</sup>  
وَلَا أَمْ فَتَبَكَّيْدْ وَلَا أَخْتُ فَنْقَنْدَهُ  
هَوَى عَنْ صَرْخَةِ صَلْدْ فَقُرْتْ تَحْتَهَا كَبِدْ<sup>(٢)</sup>  
الْأَلْمُ عَلَى تَبَكَّيْدِ وَالْمَسْدِ فَلَا أَجْدَهُ

فابنه قد سقط سقطة لا إقالة له منها ، سقط في هاوية الموت بأسفل الجبل ،  
واراه أبوه وهو يسقط في قرار الأبدية العميق ، ولم يستطع أن يمد له عوناً ، ومع  
ذلك لا يزال يظن أنه من حوله ، فيضيع يده ويتحسس كالأشعى فلا يجد ،  
 وإنما يجد فقد والوحد والبكاء .

ولعل أباً لم يبلغ من التعير عن لوعته بفقد أبنائه ما بلغه أبو ذؤيب الحذقي في  
بكائه لبني السبعه الذين اختطفهم الموت من يده وحجره ، فقال يتوجع لفراقهم  
ويتحسر لموتهم :

أَمِنَ الْمَنْوَنْ<sup>(٣)</sup> وَرِيهِ تَوْجَعْ  
وَالدَّهْرُ لِيْسَ بِمُعْتَبِرٍ مِنْ يَمْبَزَعْ  
قَالَتْ أَمِيْمَةُ مَا لِجَسْكِ شَاحِبَا  
مِنْدَ ابْنِيَلْتَ وَمِثْلُ مَالِكِ يَنْفَعَ

(١) الشرف : قمة الجبل ، والصعد : الصعود .

(٢) الصلد من الصخور : الذي لا ينبت ، وقرت : تقطعت .

(٣) المنون هنا : الدهر .

إِلَّا أَقْضَى<sup>(١)</sup> عَلَيْكَ ذَلِكَ الْمَضْجَعُ  
أَوْدَى بَيْنَ<sup>(٢)</sup> مِنَ الْبَلَادِ فَوْدَعُوا<sup>(٣)</sup>  
بَعْدِ الرِّفَادِ وَعِرَةً مَا تَقْلُعُ<sup>(٤)</sup>  
فَتُخْرِجُوهُمَا، وَلَكُلُّ جَنْبِيَّ مَضْرَعَ<sup>(٥)</sup>  
وَإِخَالُ أَنِّي لَاحِقٌ مُسْتَقْبِعُ<sup>(٦)</sup>  
وَإِذَا الْنِسَةُ أُقْبِلَتْ لَا تَدْفَعُ<sup>(٧)</sup>  
أَنْفِتَ كُلَّ تَمِيمَةً لَا تَنْقَعَ<sup>(٨)</sup>  
سُمِّلَتْ بِشُوكٍ فَهِيَ عُورَةٌ تَدْمَعَ<sup>(٩)</sup>  
بَصَفَا الْمَشَرَقَ كُلَّ يَوْمٍ تَقْرَعَ<sup>(١٠)</sup>  
إِنِّي بِأَهْلِ مَوْدَنٍ لِمَفْجَعَ<sup>(١١)</sup>

أَمْ مَا جَلْسَكَ لَا يَلْأَمْ مَضْجَعاً  
فَأَجْبَهَا أَمَا جَسَى إِنَّهُ  
أَوْدَى بَيْنَ<sup>(١٢)</sup> وَأَعْقَبَنِي حَسْرَةً  
سَبَقُوا هَوَىًّا وَأَعْتَقُوا هَوَاهُمْ  
فَبَقِيتُ بِعِدْهُمْ بَعِيشٍ تَاصِبٍ  
وَلَقَدْ حَرَصْتُ بِأَنْ أَدَافِعَ عَنْهُمْ  
وَإِذَا النَّيَّةُ أَنْشَبْتُ أَخْلَفَارَهَا  
فَالْعَيْنُ بِعِدْهُمْ كَانَ حِدَاقَهَا  
حَتَّى كَانَى الْحَوَادِثُ مَرْوَةً  
وَلَئِنْ بِهِمْ نَجَعَ الزَّمَانُ وَرَيْبُهُ

وَهِيَ صِحَّةُ حَسْرَةٍ وَلَمْ يَصَاحِهَا أَبٌ مِنْ أَحْشَائِهِ وَسَوْيَدَاءِ فَوَادِهِ ، وَقَدْ وُصِفَ  
فِيهَا شَحْوِيَّهُ وَسَهَادَهُ وَدَمْوعَهُ إِلَى لَا تَرْقَأُ وَلَا تَجْفَ ، وَذَكَرَ أَنْ عِيشَهُ اقْلَبَ مَرَا  
مِنْ بَعْدِهِمْ ، فَهُوَ يَتَجَرَّعُ الْحَيَاةَ كَأَنَّهَا غُصْصَ منَ الْعَذَابِ . لَقَدْ رَآهُمْ وَالْمَوْتُ  
يَتَلَقَّهُمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ دَفْعَاهُ لَا رَدًا . وَتَلَكَ الْبَرَاعِمُ الَّتِي غَرَسَ  
شَجَرَهَا وَسَقَاهَا مِنْ رُوحِهِ وَقَلْبِهِ تَنْفَتَتْ وَتَنْبَلَ أَزْهَارُهَا فِي الْكَبَامِ ، وَلَا حُولَ لَهُ وَلَا  
قُوَّةٌ . إِنْ عَلَيْهِ أَنْ يَتَلَقَّ التَّهَايَةَ الْمَفْجَعَةَ لِكُلِّ فَلَذَاتِ كَبِدِهِ . وَكُلُّ أَبْنِ  
كَانَ مَلِءَ رُوحَهُ وَقَلْبَهُ ، وَتَقْفَرُ الدُّنْيَا مِنْ حَوْلِهِ ، وَلَا يَبْقَى لَهُ إِلَّا الْأَلْمُ وَالْبَكَاءُ الْمَمْضُ  
وَإِلَّا هَذَا الْوَادِي وَادِي الْمَوْتِ الَّذِي يَحْمُسُ خَلَالَهُ .

(١) أَقْضَى عَلَيْهِ الْمَضْجَعُ : وَيَجْدَهُ خَشْتاً لَا يَرِيكُهُ .

(٢) أَمَا هَذَا مَرْكَبَةً مِنْ أَنْ وَمَا الْمَوْصُولَةُ ، أَوْدَى : حَلَكَ .

(٣) تَقْلُعُ : تَكْفُ .

(٤) هَوَى : هَوَى ، أَعْتَقُوا : أَسْرَعُوا ، تَخْرُمُوا : مَاتُوا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ .

(٥) التَّمِيمَةُ : الْمَوْذَةُ .

(٦) الْحَدَاقُ : جَمْ حَدَاقَةً ، سُمِّلَتْ : فَقَتَتْ .

(٧) الْمَرْوَةُ : حَجَرٌ أَبْيَضٌ تَقْلُعُ مِنْهُ النَّادِرُ .

وما يزال الشعراء يضجون بالبكاء والندب على أبنائهم حتى نصل إلى العصر العباسى ، فنجد إبراهيم بن الخليفة المهدى يموت له ابن بعيدا عنه فى البصرة ، وكان هو بيغداد ، فقال يرثيه :

فقلبك مسلوبٌ وأنت كثيـبٌ  
سوـاـيـ وأـحـدـاثـ الزـمـانـ تـوـبـ  
وأـحـدـ فـيـ الـفـيـابـ لـيـسـ يـثـوبـ  
سـقـاهـ النـدـىـ فـاهـتـزـ وـهـوـ رـطـيـبـ  
بـأـصـدـافـ لـمـاـ تـشـنـهـ قـوـبـ  
وـمـوـئـسـ قـصـرـىـ كـانـ حـينـ أـغـيـبـ  
بـهـاـ مـهـ حـتـىـ أـعـلـقـتـ شـعـوبـ<sup>(١)</sup>  
إـلـىـ أـنـ أـطـاحـتـهـ فـطـاحـ جـنـوبـ<sup>(٢)</sup>  
مسـاهـ وـقـدـ وـلـتـ وـهـانـ غـرـوبـ  
بعـنـيـ مـاءـ يـاـ بـنـيـ يـجـيـبـ  
أـوـ أـخـضـرـ فـرـعـ الأـرـاكـ قـضـيـبـ  
ثـوـيـتـ وـفـيـ قـلـبـ عـلـيـكـ نـدـوبـ<sup>(٣)</sup>  
عـلـيـكـ هـاـ تـحـتـ الضـلـوعـ وـجـيـبـ  
صـبـاـحـ إـلـىـ قـلـبـ الـفـدـاـ حـيـبـ

دـعـتـهـ نـوـىـ لـاـمـنـزـتـجـيـ أـوـبـةـ لـهـ  
تـبـدـلـ دـارـاـ غـيرـ دـارـىـ وـجـيـرـةـ  
يـثـوـبـ إـلـىـ أـوـطـانـهـ كـلـ غـائـبـ  
كـانـ لـمـ يـكـنـ كـالـنـصـنـ فـيـ مـيـعـةـ الصـحـىـ  
كـانـ لـمـ يـكـنـ كـالـلـرـ يـامـ نـورـهـ  
وـرـيـحـانـ صـدـرـىـ كـانـ حـينـ أـشـمـهـ  
قـلـيـلاـ مـنـ الـأـيـامـ لـمـ يـرـوـ نـاظـرـىـ  
كـظـلـ سـحـابـ لـمـ يـقـمـ غـيرـ سـاعـةـ  
أـوـ الشـمـسـ لـمـاـ مـنـ غـامـ تـحـسـرـتـ  
سـأـبـكـيـكـ مـاـ أـبـقـتـ دـمـوعـيـ وـالـبـكـاـ  
وـمـاـ غـارـ نـجـمـ أـوـ تـفـنـتـ حـامـةـ  
حـيـاتـيـ مـادـامـتـ حـيـاتـيـ فـإـنـ أـمـتـ  
وـأـسـفـ إـنـ أـنـدـتـ دـمـيـ لـوـعـةـ  
وـإـنـ صـبـاحـاـ نـلتـقـيـ فـمـسـائـهـ

ولا ريب في أن هذه صرخة من الأعماق فإن أحد توف دون أن يراه أبوه ، توف بعيدا عنه غريبا عن الأهل والأقرباء ، وإن ذلك ليحزن في فؤاد أبيه ، بل إنه ليتاع له التباع ، فكل غريب يثوب إلا أحد ، وتلك القوافل كلها

(١) شعوب : المنية .

(٢) الجنوب : الريح الجنوبية .

(٣) ندوب : جروح .

خلاء منه . إنه رحل في قافلة أخرى ، قافلة لا تسير في النهار ، وإنما تسرى في ليل الأبدية . وينعاه أبوه ، يعني شبابه ونصرته وريحانة وأنسه . وإنه لپذكر أيامه الماضية فترباعي له قصيرة كظل سحابة وغروب شمس ، فيبكي ويئن مع طلوع كل صباح ودخول كل مساء ، ومع حنين الطير وشدُّو الحمام . ووراء الآنين والبكاء حرقة الوجد وألم فقد ، وإنه ليتظر الموت ، حتى يُعرق في لُججته عذابه ، بل حتى يلقى ابنه الذي فصممه منه وفصله عنه .

ونضي فنتني بأبي تمام ، وقد قرع الموت فؤاده ، إذ استخلص لنفسه منه ابنه ، وكان تحت بصره وهو يجالد الموت بكل ما يملك ، ولكن الموت غلام ، فلم يلبث أن غلبه على أمره ، فاستسلم لقضاء ربه ، ورأى كلَّ ذلك أبو تمام ، فقال :

آخرُ عهْدِي بِهِ صَرِيعاً	الموت بالداء مستكينا
إِذَا شَكَا غُصَّةً وَكَرْبَاً	لَا حَظٌ <sup>(١)</sup> أَوْ رَاجِعٌ إِلَيْنَا
يُدِيرُ فِي رَجْمِعِهِ <sup>(٢)</sup> لساناً	يَمْنُعُ الْمَوْتَ أَنْ يُبَيِّنَا
يَشَخَّصُ طُورًا بِنَاظِرِيَّهِ	وَتَارَةً يُطْبِقُ الْجَفُونَا
ثُمَّ قَضَى نَحْبَهُ فَأَمْسَى	فِي جَدَّثٍ <sup>(٣)</sup> لِلثَّرَى دَفِينَا
بَعِيدٌ دَارٌ قَرِيبٌ جَارٌ	قَدْ فَازَقَ الْأَلْفَ وَالْخَلْدِينَ <sup>(٤)</sup>

ولا يقرأ أحد هذه الأبيات حتى ينبع قلبه ويختنق ، لأن أبي تمام عرف كيف يصور لحظة الاحتضار وما يرافقها من ضربات الموت ، إنها تسدد إلى ابنه ، وهو لا يستطيع لها ردا ، ويشكوا ويفتح عينيه ، وما تلبث يد الموت السوداء أن تغمضهما ، بل إنها تستقدم له بكثوس مليئة بالغضص والكرب ، ولا يستطيع إلا أن يشرب منها ، يشرب السم الرعاف . إن روحه عند حلقه ، وإن ومضات الحياة

(١) لاحظ : نظر إلى أهله مستغيثًا .

(٢) الرجع : رد الكلام .

(٣) الجدث : القبر .

(٤) الخلدين : الصديق .

تبرق في عينه، ثم لا تثبت أن تختفي في ظلام الموت وبين سحبه التي اكثفها بها الجو، وإنه بجوانحه . واحتقن الغلام وفارق دنياه ، وخليفة أباه وراعيه للأوجاع والآلام، على نحو ما خلف لابن الرومي ابنه الأوسط محمد، إذ مات متزوفا ، فقال يسكيه:

فَلَمَّا كَيْفَ اخْتَارَ وَاسْطَأَ الْعِقدَ<sup>(١)</sup>  
 فَلَمَّا قَلَّ بَيْنَ الْمَهْدِ وَالْمَخْدُلَتَبَهُ  
 فَلَمَّا تَنَسَّ عَهْدَ الْمَهْدِ إِذْ ضَمَّ فِي الْمَخْدُلِ  
 إِلَى صَفَرَةِ الْجَادِيِّ عَنْ حُزْنِ الْوَرَدِ<sup>(٢)</sup>  
 وَيَذْوَى كَايْذَوَى التَّضَيِّبِ مِنَ الرَّنْدِ<sup>(٣)</sup>  
 تَسَاقِطَ دُرْرَ من نَظَامِ بَلَّا عَقْدِ<sup>(٤)</sup>  
 أَلَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ تَغَيَّرَتْ عَنْ عَهْدِي  
 وَلَا شَمَّةٌ فِي مَلْعُبِ لَكَ أَوْ مَهْدِي  
 وَإِنِّي لَأَخْفِي مِنْكَ أَصْعَافَ مَا أَبْدِي  
 وَمِنْ كُلِّ غَيْثٍ صَادِقُ الْبَرْقِ وَالرَّعْدِ<sup>(٥)</sup>  
 تَوَلَّنِي حَاجُّ الْمَوْتِ أَوْسِطَ صَبَبَيِّي  
 فِي الْمَلَكِ مِنْ تَفْسِيرِ تَسَاقِطِ أَنْفُسِي  
 أَرِيحَانَةَ الْعَيْنَيْنِ وَالْأَنْفِ وَالْحَشَاءِ  
 كَائِنَّيِّ مَا اسْتَمْتَعَتْ مِنْكَ بِضَمَّةِ  
 أَلَمْ لَمْ أَبْدِي عَلَيْكَ مِنَ الْأَسِيِّ  
 عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ مِنْ تَحْيَيَّةِ

وابن الرومي مثل أبي تمام محترق القلب على ابنه الذي رأه يوجد بنفسه تحت بصره ، وقد عركه التزف وأحاله في صفرة الزعفران ، وإنه ليربعش في يد الموت الأئم الذي سلّ عليه سيفه ، وإن دماءه لتسليل والمنون لا ترحم . فيما لابن الرومي ! إنه يشعر كأن نفسه تتساقط من بين جنبيه وهذه الزهرة الحالمه التي كان يجد فيها فرحة قلبه وحشاته قد أخذت تذوي قبل الأوان ، وكأنه لم يستمتع منها بشمة ولا ضمة فيما لبوس الحياة ! إنها تبلو في صورة بشعة من القبح والألم . وابن الرومي يفزع ويرتابع ، ولا ينفعه فزعه ولا ارتياعه ، فيعود إلى تحية ابنه ويستسقى له على عادة العرب الغيث والمسحاب .

(١) واسطة العقد : الجلودة التي تتوسيط لآلته .

(٢) الجادي : الزعفران .

(٣) الرند : شجر طيب الرائحة .

(٤) نظام بلا عقد : سلك غير معقود .

وَمَا أَكْثَرُ مِنْ بَكَوْا أَبْنَاءَهُمْ ۚ وَبِكَاءُ الشَّهَادِي لَابْنِهِ ذَائِعٌ مُشْهُورٌ ، وَهُوَ يَسْتَهِلُ  
بِالْحَدِيثِ عَنْ فَنَاءِ النَّاسِ وَكُلِّ مَا عَلَى الْأَرْضِ ، وَمَا يُلْبِثُ أَنْ يَنْدِبَهُ نَدِيَا حَارَّا ،  
فَيَقُولُ :

يَا كَوْكَباً مَا كَانَ أَقْصَرَ عَرَمَةً  
وَكَذَاكَ تُغْرِيْ كَوَاكِبُ الْأَسْحَارِ  
وَهَلَالَ أَيَامٍ مُضَى لَمْ يَسْتَدِرْ  
بَدْرًا وَلَمْ يُنْهَلْ لَوقْتُ سِرَارَ<sup>(١)</sup>  
مَجْلِ الْنَّسُوفُ عَلَيْهِ قَبْلُ أَوَانِهِ فَسَاحَ قَبْلُ مَظِئَّةِ الْإِبْدَارِ

وَمِنْ أَرْوَعِ مَا نَظَمَ فِي بَكَاءِ الْأَبْنَاءِ مَقْطُوْعَةً لِفَقِيهِ الْأَنْدَلُسِ أَبِي الْوَلِيدِ الْبَاجِيِّ  
نَدِبُّ بَهَا إِبْنِيْنَ لَهُ مَاتَا مُغْرِبَيْنِ ، وَهِيَ تَجْرِي عَلَى هَذَا النِّطَاطِ :

رَعَى اللَّهُ قَبْرِيْنَ اسْتَكَانَا بِيلْقِيْ  
هَا أَسْكَنَاهَا فِي السَّوَادِ مِنَ الْقَلْبِ  
يَقَرَّ بَيْنِ أَنْ أَزُورُ ثِرَاهَا  
وَالْأَصْقَ مَكْنُونَ التَّرَائِبِ فِي التُّرْبَ<sup>(٢)</sup>  
وَأَبْنَكِيْ وَأَبْنَكِيْ سَاكِنِيْا لِعَنِيْ  
سَاجِدَ مِنْ صَخْبِيْ وَأَسْعَدَ مِنْ سُخْبِيْ<sup>(٣)</sup>  
فَاسْعَدْتُ وَرْقَ الْحَمَامِ أَخَا أَسَيِّ  
وَلَا سَعْدَتْ عَيْنَاهِيْ بَعْدَهَا كَرَّتِيْ  
أَحِنْ وَيَنْيِي الْيَأْسُ نَفْسِيْ عَنِيْ الْأَسَيِّ  
كَمَا اضْطَرَّ مَحْمُولُ عَلَى الْمَرْكَبِ الصَّفَبِ

وَالْأَبِيَّاتِ تَفِيضُ بِالشَّعُورِ الصَّادِقِ الَّذِي يَعْبُرُ عَنْ نَفْسِ مَجْرُوحِهِ قَدْ هَدَهَا  
الْهَمُّ وَضَعْضُعُهَا الْحَزَنُ ، وَإِنْ صَاحِبِها بِلْجَزَعِ أَشَدُ الْجَزَعِ مُلْتَاعٌ أَعْظَمُ التَّبَاعِ .  
وَرِبِّيَا كَانَ أَهْمَ شَاعِرُ وَلِعَ بِرَثَاءِ ابْنِهِ وَبِكَاهَةِ أَبِيِّ الْحَسَنِ عَلَى بْنِ عَبْدِ الْغَنِيِّ  
الْكَفِيفِ شَاعِرِ الْقِيرَوانِ الَّذِي هَاجَرَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ حِينَ خَرَبَهَا الْعَرَبُ حَوْالِي  
مِنْتَصِفِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ لِلْهِجَرَةِ ، فَقَدْ تَوَفَّ لَهُ وَلَدٌ فِي التَّاسِعَةِ مِنْ عَمْرِهِ ، فَصَنَعَ  
فِيهِ مَرَاثِيَّ عَلَى حِرَفِ الْمَعْجمِ أَلْفَ مِنْهَا دِيَوَانًا سَمَاهُ « اقْتِرَاحُ الْقَرِيبِ وَاجْتِرَاحُ  
الْجَرِيجِ » وَفِيهِ يَقُولُ :

(١) يَسْتَدِرُ : مِنْ اسْتَدَارَةِ الْبَدَرِ فِي وَسْطِ الشَّهْرِ . وَقْتُ السِّرَارِ : وَقْتُ اسْتِفَاءِ القَمَرِ جَلَّهُ .

(٢) التَّرَائِبُ : عَظَامُ الصَّدَرِ

(٣) أَسَدُ : مِنْ أَسْعَدِهِ أَيْ أَهَانَهُ فِي الْبَكَاهِ وَالنَّوَاحِ

أنا فَرَدٌ بلا خَلِيلٍ ولا بَنِي ولا أخْرٌ  
 أنا كَالْأُورقِ اشْتَكَ بَعْدَ وَكْرٍ وَفَرْخَرٍ  
 قُرْةُ العَيْنِ دونه بَرْخٌ أَىْ بَرْزَخٌ

وَمَعْ طُولِ الْدِيْوَانِ تَقْلِيلُ فِيْهِ الْأَبْيَاتِ الْمُلْتَاعَةِ، إِذَا شُغِلَ صَاحِبُهُ بِالصُّورِ الْبَيَانِيَّةِ  
وَالْمُخْلِلِ الْبِلَاغِيَّةِ مَا كَانَ يَعْدُ آيَةً الْبِرَاعَةَ فِي عَصْرِهِ.

ولعل فيها قدمنا ما يدل دلالة واضحة على أن ندب الأبناء والإخوة يستوفى أكثر الصفحات المهزونة من ندب الأهل والأقارب، فإننا إذا تركناهم إلى غيرهم من الأصول والفروع لم نجد هذه الحرقه التي تتصور لها الأحساء والقلوب، ومع ذلك من حين إلى حين نجد بكاءً لأب أو أم أو جدة أو أخت أو بنت، وربما كانت مرثية شوق لأبيه خير صورة لندب الآباء في العربية، وإن كان قد أدخل عليها تفكيراً في الحياة والممات، ولكن تظل بعض الأبيات لها روعة الندب والبكاء كقوله :

أنا من مات ومن مات أنا  
 نحن كنا مهجةً في بدنٍ  
 ثم عدنا مهجةً في بدنٍ  
 ماءٌ إِلَّا أَخْ فارقْتُهُ  
 طالما قُنَا إِلَى مائدةٍ  
 وشربنا من إناءٍ واحدٍ  
 لقيَ الموتَ كلامًا مرتينَ  
 ثم صرنا مهجةً في بدينٍ  
 ثم نُلْقِي جُنَاحَةً في كفينٍ  
 وذه الصدقُ وود الناس مينٍ  
 كانت الْكِسْرَةُ فيها كسرتين  
 وغسلنا بعد ذا فيه اليدن

وقليل بين الشعراء من رثى أمه ، وربما كان من أجمل ما قيل في الأمهات  
قول ابن سناء الملك في أمه من موشحة :

حزن على أمي حزن شديد تبلى الليالي وهو غض جديـد  
فقـل لنـار القـلب هل من مـزيد وقل لـصرف الـدـهـر هل من تـحـمـيد

ورثي المتنبي جدته ، ولكن رثاءه فيها يدور على الفخر بنفسه أكثر مما يدور على بكلائها ، وقد تأثر به شوق في رثاء جدته « تمراز ». ويندر أن نجد ندباً حاراً لأخ على أخيه ، وربما كان أبو فراس الحمداني خير من ندب أخيه له ، ففي أخيه يقول :

عقيلي استُلْبَتْ مِنْ يَدِي وَلَا أَبْعَنَاهَا وَلَا أَهْبَطْ  
وَكُنْتُ أَقِيلَّكَ إِلَى أَنْ رَمْتَكَ يَدَ الْدَّهْرِ مِنْ حِيثُ لَا أَحْتَسِبْ  
فَلَا سَلَمْتَ مَقْلَةً لَمْ تَسْعَ وَلَا بَقِيَتْ لَمَّا لَمْ تَشَبَّ

وهذه كلها مرات لا تبلغ من حرارة التفعج ما تبلغه مراث الآباء ، وإذا كان هناك قصور فهو من قبيل الرجال الذين تعودوا — تقليداً للجاليلين — أن لا يرثوا بناتهم وأمهاتهم وأن لا يبكيوا عليهم. أما المرأة فكانت أكثر وفاء للرجل ، وبكته أخاً وأباً وابنا ، وبكته زوجاً ، حدث الأصمى أنه رأى بالبادية امرأة أصقت خدها بقبر زوجها وهي تبكي وتقول :

خَدَّى تَقِيكَ خَشُونَةَ الْحَدَرِ وَقَلِيلَةُ لَكَ سِيدِي خَدَّى  
يَا سَاكِنَ الْقَبْرِ الَّذِي بِوْفَاتِهِ عَمِيتَ عَلَى مَسَالِكَ الرُّشْدِ  
اسْمَعْ أَبْنَكَ عَلَيَّ فَلَمَلَنِي أَطْفَى بِذَلِكَ حَرْقَةَ الْوَجْدِ

وفزوج الأمين بفتاة ، وتوفى عنها قبل أن يبني بها ، فندبته ندبها حاراً ، ومن قولهما فيه :

أَبْكِيكَ لَا لِلنَّعِيمِ وَالْأُنْسِيِّ بِلَ لِلْمَعَالِيِّ وَالرَّمَحِ وَالْفَرَسِ  
أَبْكِي عَلَى سَيِّدِي فَجِعْتُ بِهِ أَرْمَانِي قَبْلَ لَيْلَةِ الْعَرْمَى

فالمرأة لم تقصر في بكاء أهلها وأزواجها ، وقد بكى كثير من الرجال زوجاتهم ، وربما كانت الزوجة أم النساء اللائي ذرف الرجال عليهم السمع ، فنحن نجد في كتب الأدب قديماً وحديثاً قطعاً مبكية في هذا الجانب . ومن

## طريف ما رُوىَ لبعض الأعراب :

فواهـة ما أدرـى إـذـا اللـيل جـنـى وـذـكـرـيـها أـيـثـا هـوـ أـوـجـعـ<sup>(١)</sup>  
أـمـنـفـصـلـ عنـ ثـدـيـ أـمـ كـرـيـةـ أـمـ العـاشـقـ النـابـيـ بـهـ كـلـ مـضـبـعـ

وصور هنا هذا الأعرابي ما يبكيه الرجل في زوجته ، فهو يبكي معشوقته من جهة وأم أطفاله من جهة ثانية . ومن أروع ما رُوىَ به الزوجات وأشجاه قول محمد بن عبد الملك الزيارات في زوجته :

بـعـيـدـ السـكـرـى عـيـنـاه تـبـتـدـرـانـ<sup>(٢)</sup>  
بـيـتـانـ تـحـتـ اللـيل يـنـجـيـانـ  
بـلـبـلـ قـلـبـ دـائـمـ الـخـفـقـانـ  
أـدـاوـيـ بـهـذـا الدـسـعـ مـا تـرـيـانـ  
لـمـ كـانـ فـقـلـيـ بـكـلـ مـكـانـ  
أـحـقـ مـكـانـ بـالـزـيـارـةـ وـالـهـوىـ  
فـهـلـ أـتـاـ إـنـ عـجـتـ مـقـتـرـانـ  
أـلـمـ رـأـيـ الطـنـفـ المـفـارـقـ أـمـ  
رـأـيـ كـلـ أـمـ وـابـنـاـ غـيرـ أـمـهـ  
وـبـاتـ وـحـيدـاـ فـفـرـاشـ تـحـثـهـ  
فـلـاـ تـلـحـيـانـ إـنـ بـكـيـتـ فـإـنـماـ  
وـإـنـ مـكـانـاـ فـالـثـرـىـ خـطـّـ لـهـ  
أـحـقـ مـكـانـ بـالـزـيـارـةـ وـالـهـوىـ

وفي هذه الأبيات لوعة الزوج الواقف الذي يكاد يموت حسرة وأسى على زوجته ، وإنه ليول وجهه شطر ابنا ، ويري حزنه ووله ، فتعظم الحسرة ويعظم الأسى والشجن في نفسه ، فيحزن إليها ، يحن إلى جسدها وروحها ، وما يزال مختلف إلى قبرها بنفس الحرارة والعمق اللذين كان مختلف بهما إلى قصرها . وماذا يستطيع ، وماذا يحيى ؟ إنها ذهبت إلى الأبد ولم يعد له منها إلا الدموع العذار ولا الآلام والأسجان .

وعلى نحو ما روى العباسيون زوجاتهم رثوا جواريهم وبكونهن ، وارتفاع صياحهم وراءهن ، فناحوا عليهم نواحا لا ينقطع ، ومن اشتهروا بذلك في العصر

( ١ ) واضح أن حركة الروى في هذا البيت تختلف حركته في البيت السابق ويسمى العرب ذلك إفراه .

( ٢ ) تبدران هنا : تسيلان بالدموع .

العباسي يعقوب بن الريبع ، وكان عشق جارية ، وظل سبع سنوات يبذل فيها جاهد وماله حتى ملكها فأقامت معه بضعة أشهر ، ثم ماتت ، فشعر كأنه كان في حلم وأفاق منه على البوس ، وله فيها ندب كثير ، منه قوله :

الله آنسةٌ بفتحٍ بها ما كان أبعدها من الدّسِ  
أنتِ البشارة والنعىٌ معاً يقرب مأتمها من العُرسِ  
كم من دموعٍ لا تجفُّ ومن نفسٍ عليك طولية النفسِ  
أبكيكَ ما ناحتٌ مطوقةٌ تحت الظلام تنوح في الفَلَسِ

وكانما كان هناك سباق بين القدر وبين يعقوب أن لا ينعم بأمنيته ، فلم يكدر يظفر بها ، ولم تكدر تغمر حياته بنور السعادة ، حتى فرت من أمام عينيه ، وخلفت له للظلام والوحشة . ألا إن هذه سخرية القدر ، لقد ظل يطلبها سبع سنين ، ولم يكدر يحصل عليها ولمسها ، يلمس فرحته وسعادته ، حتى أتاه النعى مع البشري ، وانقلب العروس البهيج إلى مأتم حزين .

وعلى تحول ما بكى العباسيون جواريهم وزوجاتهم بكاء فيه شجي وأسى بكت الأقاليم العربية الأخرى ، ففي كل مكان نجد مراثي الجواري والزوجات ، فمن ذلك رثاء المعلّى الطائى المصرى جاربته « وصف » وفيها يقول :

ياموت ما بقيتَ لي أحداً لما زفتَ إلى البلى وصفنا  
أسكنتها في قعر مظلمةٍ بيتاً يصافح تُربةِ السقنا  
بيتها إذا ما زاره أحدٌ عصفتْ به أيدي البلى عصفنا  
ياقبرُ أبقى على محاسنها فقد حويتَ النور والظُّرفاً

وهي مرثية طويلة ، وتحتاز بالعاطفة الصادقة والشعور العميق بالحزن . وللمصريين من ورائهم مراثٌ مبكية كثيرة في زوجاتهم ، وكذلك الأندلسيون ، ولبعضهم في رثاء زوجته وكانت تسمى زينب :

أَزِينْبُ إِنْ ظَعْنَتِ فَإِنْ ظَهَرَ أَقْلَكُ<sup>(١)</sup> سُوفَ يَرْكَبُ الْمَقْيمُ  
وَلَا أَنْ حَلَّتِ التُّرْبَ قَلَنَا لَقَدْ ضَلَّتْ مَوَاقِعُهَا النَّجُومُ  
أَلَا يَازِهْرَةَ ذَبَلَتْ سَرِيعًا أَضَنَّ الْمُرْزَنُ أَمْ رَكَدَ النَّسِيمُ

والصورة المرسومة في البيت الأخير جميلة حقا ، وهي صورة أملأها حب دفين لزوجة اختطفها المتنون وهي لا تزال في عمر الزهور . إنها زهرة ندية عطرة لم تلبث أن ذوت قبل الأوان ، وبدفع من الشاعر أن أكمل الصورة بقوله « أَضَنَّ لِزَنْ أَمْ رَكَدَ النَّسِيمُ؟ » فقد صب في هذا التساؤل الذي تتسائله مواكب الإنسانية من قديم كل ما أراد من إظهار الحيرة والمدهشة لزاء المصيبة الفادحة .

وهنّ بكي زوجته في العصر الحديث بكاء حارا محمود سامي البارودي ، إذ ماتت شريكة حياته وهو مني في سرنيبيب فحرّم أولاده أباهم وأمهem جميعا . واجتمع عليه بذلك أسى النفي والفقد وحرمان الأبناء من كانت أنسهم في غيبته وأمنهم وسعادتهم ، ولم يلبث أن بث حسرته المتوقدة وحرقته المتأججة في مرثية طويلة يقول فيها :

يَا دَهْرُ فِيمْ بَعْتَنِي بِحَمْلِيَّةِ كَانَتْ خَلَاصَةَ عَدَّتِي وَعَنَادِي  
إِنْ كَنْتَ لَمْ تَرْخَمْ ضَنَائِي بَعْدَهَا  
أَفْرَدْتَهُنَّ فَلَمْ يَنْمَنْ تَوْجِهَا  
أَقْبَنِي دُرُّ عَقْدَهُنَّ وَصُفْنَيْهِنَّ تَوْجِهَا  
كَانَتْ هُنَّ كَثِيرَةً إِلْسَادِيَّةَ  
خَدُودَهُنَّ مِنْ الدَّمْوعِ نَدِيَّةَ وَقَلْوبَهُنَّ مِنْ الْمَهْمُومِ صَوَادِيَّ

ومنذ سنوات نشر كل من عزيز أباذه وعبد الرحمن صدقى ديوانا يوثق فيه زوجته فقد صهر الحزن قليهما ، وسرق قواديهما ، فسكنها الدموع ، وسرعان ما تحولت الدموع إلى ديوان شعر . وسي عزيز أباذه ديوانه « آنات حاثرة » وهى آنات

(١) أَقْلَكُ : حمل .

نفس سعدت بالحياة الزوجية وفراديسها ، ثم لم تثبت أن رُدّت إلى جحيم الفراق وهو فراق الأبد . ومن طريف أشعاره فيها قصيدة بعنوان «يوم ميلادي» يقول في مطلعها:

أقول والقلبُ في أضلاعه شَرِقُ  
بالدمع لا عُذْتَ لِ يَا يَوْمَ مِيلَادِي  
نزلتَ بِي ودخولُ الْحَزْنِ يَعْصِفُ بِي  
وكَتَّ تَحْمِلُ لِي والشَّمْلُ مجْمِعُ  
فَانظُرْ تَرَ الدَّارَ قدْ هِيَضَتْ جَوَانِبُهَا  
قدْتَهَا خَلَةً لِلنَّفْسِ كَافِيَّةً  
تحْنُو عَلَىٰ وَتَرْعَانِي وَتَبْسِطُ لِي  
وَسَبِّيْ عبد الرحمن صدق ديوانه «من وحي المرأة» ولم تكن شريكة حياته  
فحسب ، بل كانت أيضا شريكة عقله ودرسه . فاعتصر الحزن قلبه عليها ، وأوقد  
فيه نيرانا لا تهدأ من الحسرة والقوجعة ، وصور ذلك لافي قصيدة أو قصيدتين ،  
بل في ديوان كله ألم وعداب . ومن قوله فيها وقد تحمل إلى قبرها باقة من الزهر :

إِلَيْكِ حَلَتْ الزَّهْرَ، شَاهَتْ أَزَاهِرِيٍّ  
حَلَتْ إِلَيْكِ الزَّهْرَ تَرْوِيهِ أَدْمَعِي  
وَتَنْوِيهِ أَنْفَاسِي وَحَرَثُ زَوَافِي  
قَدَمْتُ إِلَيْكِ الْيَوْمَ أَسْوَأَ مَقْدَمِي  
سَوَادُ بَأْتُوْبِي سَوَادُ بَخَاطِرِي  
وَخَاتَمُ عَرْنَسِي لَا مِيزَانٌ إِاضْبَعِي  
وَلَخَةُ وَجْهِي غَيْرُهَا فِي التَّزاوِرِ  
عَلَى قَبْرِكَ الْمَرْمُوقَ أَبْكَى وَأَرْتَى

ويطول بنا الحديث إذا أخذنا نعرض كل الطرائف التي بكى بها الشاعر  
والشاعر أهليهم وأقاربهم ومن أصفوهם حبهم . وإنما هذه نماذج لما صور به  
شعرنا الآلام والأوصاب التي حللت بأصحابه حين طرق الموت أبوابهم ، وانخلس  
تحت أعينهم أفرادا من أسرهم وأقربائهم ورفاقهم .

### ندب الشعراء أنفسهم

إذا كان الشعراء قد ندبوا أهليهم وذويهم فأول لهم أن يندبوا أنفسهم حين تحيين ساعة الموت ، ولا يمدون لهم ملجاً ولا عاصماً ، وكثيرٌ ندبوا أنفسهم وبكونها مند العصر البخالي ، ويقال إن أول من بكى على نفسه وذكر الموت على لسانه يزيد بن خذاف ، إذ قال :

أَمْ هُلْ لَهُ مِنْ حِجَامَ الْمَوْتِ مِنْ رَاقِ  
هَلْ لَقِيَ مِنْ بَنَاتِ الدَّهْرِ مِنْ وَاقِ  
فَدْرَجُونِي وَمَا بِالشِّعْرِ مِنْ شَعْثَ  
وَأَرْسَلُوا فَتِيهَ مِنْ خَيْرِهِ حَسْبَأَ  
وَأَلْبَسُونِي ثِيابًا غَيْرَ أَخْلَاقِ  
لِيُسْنِدُوا فِي ضَرِيعِ الْقَبْرِ أَطْبَاقِ<sup>(١)</sup>

وطبيعي أن يندب الشعراء أنفسهم وهو يفارقون دنياهم من ورائهم إلى حفرة مظلمة . إنها ساعات ثم يخرج الشيعون من حوضهم وورائهم ، يحملون نعشهم إلى قبورهم ، ويدفنونهم في لحودهم ويوارونهم التراب ويعودون ، ليُسم كل منهم دورته في حياته .

وكانت تعظم المصيبة على الشاعر حين يجد نفسه غريباً عن وطنه ودياره ، وينزل به الموت ولا يجد مفراً من لقائه ، وينظر حوله ، فلا يجد أحداً من أهله ، فليس معه من سيسعشه ولا من سيحرر له لحده ، ولا من سيبكيه وينتبه . ومن خير من صور الألم لذلك مالكُ بن الرَّئِبُ الذي غزا في خراسان ، فلما حضرته منيته ناح على نفسه قائلاً :

أَلَا لَيْتْ شِعْرِي هَلْ أَبَيْنَ لَيْلَةً  
بِجَنْبِ النَّفَاضَازِ جِيَ القِلَاصَ النَّوَاجِيَا<sup>(٢)</sup>

(١) أخلاق : بالية .

(٢) أطباقي : عظامي .

(٣) النضا : شبر بتعجد وأرضن بها ، والقلاص : النرق ، والنواجي : السريعة .

وليتَ الغصَّا ماشِيَ الرُّكَّابَ لِياليا  
 مَزَارٌ وَلَكُنَّ العَصَّا لِيَسْ دَانِيَا  
 بِرَأْيِيْ إِنِيْ مَقِيمٌ لِياليا  
 وَرُدَّاً عَلَى عَيْنِيْ فَضَلَّ رَدَائِيَا  
 وَقَدْ كُنْتْ قَبْلَ الْيَوْمِ صَعِيباً قِيَادِيَا  
 سَوْيِ السِيفِ وَالرَّمْحِ الرَّدِينِيِّ بَا كِيَا  
 بَكِينَ وَفَدَيْنَ الطَّيِّبَ الْمَداوِيَا  
 بِعُوقَى وَبَنْتَ لِيْ تَهْبِيجَ الْبَوَا كِيَا  
 ذَمِيَا وَلَا بِالرَّمْلِ وَدَعْتُ قَالِيَا<sup>(١)</sup>  
 وَأَيْنَ مَكَانٌ الْبَعْدُ إِلَى مَكَانِيَا

فليت العصَّا لم يقطع الرُّكَّبُ عَرْضَهُ  
 لقد كان في أهل الغصَّا لودنا الغصَّا  
 فيما صاحيَّنَ رَخْلَى دَنَا الْمَوْتُ فَاخْفِرَا  
 وَخُطَا بِأَطْرَافِ الْأَسْنَةِ مَضْبِعِي  
 خُذَانِي فَبَجَرَانِي بَيْرُدِي إِلِيكَا  
 تَفَقَّدَتْ مِنْ يَيْكِي عَلَى فَلَمْ أَجِدْ  
 وَبِالرَّمْلِ مِنَا نَسْوَةً لَوْ شَهِيدَتِي  
 عَجُوزِي وَأَخْتَاهِي اللَّتَانِ أَصَبِّيَا  
 وَمَا كَانَ عَهْدُ الرَّمْلِ مِنِي وَأَهْلِهِ  
 يَقُولُونَ لَا تَبْعَدْ وَهُمْ يَدْفُونِي

وَالْمَرِيثَةُ طَوِيلَةُ ، وَكَلَاهَا شَكْوَى وَبَكَاءُ وَأَيْنِينُ ، لَامِنْ أَجْلِ الْمَوْتِ فِي حَسْبِ ،  
 بَلْ لِلْمَوْتِ الْبَعِيدِ فَهُوَ يَمُوتُ غَرِيباً عَنِ الرَّوْلِ وَأَهْلِهِ ، لَمْ تُغْمِضْ عَيْنِيهِ أَمْهُ وَلَا أَخْتَاهَ  
 وَلَا بَنْتَهُ وَلَا زَوْجَهُ ، وَإِنَّهُ لِيَذْكُرُ الغَصَّا ذَكْرِي مَوْلَةَ ، إِذْ كَانَ مَكْتُمِلَ الصَّحَّةِ  
 وَالشَّابِ يَدْفَعُ التَّوْقِ أَمَامَهُ ، وَلَا وَحْدَةٌ وَلَا غَرْبَةٌ . إِنَّهُ يَتَمَّنِي لَوْ أَنَّهُ لَمْ يَفْارِقْ الغَصَّا  
 وَلَا أَهْلَهُ ، إِذْنَ مَا غَالَتْ خَرَاسَانَ هَامَتْهُ ، وَلَكُنْهَا الْفَتْوَحُ الْإِسْلَامِيَّةُ ، وَهُوَ يَخْرُجُ  
 مَجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَعَ الْمُجَاهِدِينَ ، وَقَدْ تَرَكَ وَرَاءَهُ أَسْرَتَهُ قَرِيرَ الْعَيْنِ ، غَيْرُ أَنَّ  
 الْفَرَاقَ صَعْبٌ ، وَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمْ حِينَ وَدَعَهُمْ أَنَّهُ الْوَدَاعُ الْآخِيرُ . وَتَطْيِيفُ بِهِ الرَّهْبَةُ  
 مِنَ الْمَوْتِ ، كَمَا يَطْيِيفُ بِهِ الْخَنِينُ إِلَى الْأَهْلِ ، فَيَبْكِي وَيَنْدِبُ مَنَّاً ثَرَاعِيْقاً ،  
 إِذَا أَشَرَّفَتْ حَيَاتَهُ عَلَى النَّهايَةِ ، وَعَمَّا قَلِيلٍ تَوْصِدُ أَحْجَارَ الْقَبْرِ دُونَهُ . أَلَا فَلِينَشِيعَ  
 وَلِينَخُ ، إِنَّ الْقَدْرَ سِيَرُعُهُ لَا مَحَالَةٌ .

وَغَضِيَ إِلَى الْعَصَرِ الْعَبَاسِيِّ فَنَجَدَ الشَّعْرَاءِ يَكْثُرُونَ مِنْ تَوْحُّ أَنْفُسِهِمْ ، وَخَاصَّةً  
 أَنَّهُمْ يَذْكُرُونَ ذُنُوبَهُمْ فِي خَافُونَ رَبِّهِمْ ، وَيَشْفَقُونَ مِنْ لَقَائِهِ ، فَيَنْطَلِقُونَ وَجِيلَيْنِ  
 مَعْلَنِينَ التَّوْبَةُ وَالاسْتَغْفَارُ مَا قَدَّمْتُ أَيْدِيهِمْ ، وَلَأَبِي نُؤَاسِ :

---

(١) القال : المبغض الكاره.

يَارَبَّ إِنْ عَظَمْتَ ذُنُوبِيْ كَثِيرًا  
فَلَقَدْ عَلِمْتَ بِأَنْ عَفْوَكَ أَعْظَمُ  
إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ  
فِيمَنْ يَلُوذُ وَيَسْتَجِيرُ الْجُرمُ  
مَالِيْ إِلَيْكَ وَسِيلَةُ إِلَّا الرَّجَا  
وَجَمِيلُ عَفْوَكَ ثُمَّ إِنِّي مُسْتَلِمٌ

لقد أظلمت الدنيا وادهمت في عين أبي نواس حين نزل به ريب المنون ،  
ففزع إلى ربه يعلق به أمله ، ويرجو منه أن يُسندل ثوب الغفران على ذنبه  
وسيئاته التي اقرفها ، ويشمله بعفوه وإحسانه . ويذكر الشعرا العباسيون الذين  
صاحوا هذه الصيحات حين طرت المنية دورهم ، ولأبي العتايبة هذا الدعاء :

إِلَهِيْ لَا تَعْذِّبْنِي فَإِنِّي  
مُؤْرِّقٌ بِالَّذِي قَدْ كَانَ مِنِّي  
لِمَفْوَكِ إِنْ عَفْوتَ وَحُسْنُ ظُنْنِي  
فَالِّي حِيلَةُ إِلَّا رَجَائِي  
وَكَمْ مِنْ زَلَّةٍ لَّيْ فِي الْخَطَايَا  
وَأَنْتَ عَلَىٰ ذُو فَضْلٍ وَمَنْ  
عَضَضْتُ أَنَامِي وَقَرَعْتُ سِيَّ  
إِذَا فَكَرْتَ فِي نَدْمِي عَلَيْهَا  
لَشَرُّ الْخَلَقِ إِنْ لَمْ تَعْفُ عَنِي  
يَظْنَ النَّاسُ بِي خَيْرًا وَإِنِّي

وشاع بين الشعراء أن يكتبا على شواهد قبورهم أبياتاً ، فيها أحيانا الدعاء ،  
وفيها أحيانا أخرى ذكر الموت والفناء وأن أحدا لا يقيم في الدار الأولى ، بل الكل  
راحل ، ويقال إن أبو العتايبة أوصى بأن تُكتب على قبره هذه الأبيات الأربع:

أَذْنَ حَيْ تَسْمَعِي  
أَسْمَعِي ثُمَّ عِي وَعِي  
أَنَا رَهْنُ بِمَضْجُعي  
فَاحْذِرِي مَثْلَ مَصْرُعِي  
عَشْتُ تَسْعِينَ حِجَّةَ  
ثُمَّ وَافَيْتُ مَضْجُعي  
لَيْسَ شَيْءٌ سَوِي التَّقِيَّ  
فَخَذِّلِي مِنْهُ أَوْ دَعِّي

وكان هذه الكتابة على شواهد القبور منتشرة في العالم الإسلامي كله ،  
ويروى أن ابن شهيد شاعر الأندلس المشهور أوصى أن يكتب على قبره في لوح

رِحَامٌ هَذَا النَّظَمَ :

ياصاحبي قُمْ قد أطْلَنَا  
أَنْحَنْ طَوْلَ الْمَدَى هَجُودٌ<sup>(١)</sup>؟  
فَقَالَ لِي : لَنْ نَقْوَمْ مِنْهَا  
مَادَامْ مِنْ فَوْقَنَا الصَّعِيدَ<sup>(٢)</sup>  
تَذَكُّرُكُمْ لَيْلَةٍ لَهُونَا  
فِي ظُلُمَّهَا وَالزَّمَانُ عَيْدُ  
كُلْ كَائِنٌ لَمْ يَكُنْ، تَقْضَى  
وَشُوَمَّهُ حَاضِرٌ عَيْدُ<sup>(٣)</sup>  
يَارَبُّ عَفْوًا فَأَنْتَ مَوْلَى قَصْرٌ فِي أَمْرِكَ الْعَيْدِ

وهو يأسى على التحول إلى هذه الدار التي لا يقوم منها أهلها، فقد ختمت بمحاجرة لا تُفَضِّل حتى يوم البعث والنشر . ويدرك تعيمه في دنياه ، ويراه كسحابة جادت ، وسرعان ما رحلت . ويفزع إلى ربه يطلب منه العفو والغفران . وأوصى ابن زهر الطبيب الأندلسى المعروف أن تكتب هذه الأبيات على قبره :

تَأْمَلُ بِحَقِّكَ يَا وَاقِفًا  
وَلَا حِظْ مَكَانًا وَقَنَا إِلَيْهِ  
تَرَابُ الضَّرِيجِ عَلَى وَجْهِنِتِي  
كَائِنٌ لَمْ أُمْشِ يَوْمًا عَلَيْهِ  
أَدَوَى الْأَنَامِ حَذَارُ الْمَنَوْنِ  
وَهَا أَنَا قَدْ صَرَتُ رَهْنًا لِدِيهِ

ويظهر أن الأندلسين عُنوا بهذا الجانب ، فكثير منهم نظموا أشعاراً وكتبوها على قبورهم ، وأيضاً كثير منهم نعوا أنفسهم حين توقعوا الموت ، وهتف بهم هاتفه ، ولسان الدين بن الخطيب يبكي نفسه :

بَعْدَنَا وَإِنْ جَاءَرْتَنَا الْبَيْوتُ<sup>\*</sup> وَجَثَنَا بِوَعْظٍ وَنَحْنُ صَمُوتُ  
وَأَنْفَاسُنَا سَكَنَتْ دَفَّةً كَجَهْرِ الصلَاةِ تَلَاهُ الْقَنُوتُ

(١) هجود : نيام .

(٢) الصعيد : التراب .

(٣) عيـدـ : مهـيـاـ .

وَكُنَا عِظَالِمًا فَصَرَنَا عِظَالِمًا وَكُنَا نَقْوَتْ فَهَا نَحْنُ قَوْتُ<sup>(١)</sup>

وفي كل مكان من العالم العربي نجد هذا التدب والنواح ، فالمأساة واحدة ، وكل يزيد فيها سطراً أسود حزيناً .

ولعل شاعراً عربياً لم يرث نفسه ويبيكيها ، كما رث في عصرنا نفسه وبكاهها أبو القاسم الشابي الذي عصف به مرض القلب وهو في ريعان شبابه ، فعاش بيكي نفسه ويندبها ندبها حاراً لا في مرثية أو مرثتين ، وإنما في ديوان حافل باللون الشجي والأسى ، وصف فيه كيف أوصى المرض "الأبواب والنواخذ عليه" ، فلم يعد يرى إلا هاوية وحقرته . بل إن هذا المصير الذي لا بد وافق عليه ومتنه إليه أصبح يطلبه ، إذ يرى فيه منجاته من أوصابه وألامه ، وهو يسمى هذا المصير «الصبح الجديد» وفيه يقول :

اسْكُنْتُ	يَا جَرَاح	وَاسْكُنْتُ	يَا شَجَونَ
مَاتْ عَهْدُ	النَّوَاحِ	وَزَمَانُ	الْجَنُونَ
وَأَطْلَلْ	الصَّبَاحِ	مِنْ وَرَاءِ	الْقَرْوَنَ

فساعة الخلاص قد دنت ، وأن له أن يدفن آلامه ، ويُغرق أحزانه في خضم اللامنوية فقد دعاه الصبح ، ولم يعد الظلم يستطيع أن يلف جسده في ظلال الألم . إنه راحل وهو سعيد برحيله :

الْوَدَاعَ	الْوَدَاعَ	يَا جِبَالَ	الْمَهْوَمَ
يَا ضَبَابَ	الْأَسَى	يَا فِجَاجَ	الْجَعِيمَ
قَدْ جَرَى	زُورَقَ	فِي الْخَضْمِ	الْعَظِيمَ
وَنَشَرَتْ	الْقَلَاعَ	فَالْوَدَاعَ	الْوَدَاعَ

وعلى هذه الشاكلة ما زال الشعراً قد يما وحديثاً ي يكون أنفسهم ويذعون ربهم في ساعات اختصارهم ، وحين يرون الستار يوشك أن يُسْدَلَ على قصة حياتهم .

(١) مظالم الأولى : بمع عظيم ، والثانية : بمع عظم .

## نَدْبُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآلِ الْبَيْتِ الْكَرِيمِ

حينما أفل كوكب الرسالة الإسلامية الذي أضاء ما بين المشرق والمغرب هلم  
الصحاباة رضوان الله عليهم ، وفرعوا لهذا النبات المفجع ، وكاد عمر بن الخطاب أن  
لا يصدق ، لو لا أن رَدَّهُ أبو بكر إلى صوابه . وخرج الصحابة يصلّون عليه  
ويشيعونه إلى مثواه العطير بقلوب واجفة وعيون باكية ، ويقال إن ابنته فاطمة  
كانت تندبه وتقول :

أَغْبَرَ آفَاقُ السَّمَاءِ وَكُورَتْ  
شَمْسُ النَّهَارِ وَأَظْلَمَ الْمَصْرَانِ<sup>(١)</sup>  
فَالْأَرْضُ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ كَثِيرَةٌ  
أَسْفَا عَلَيْهِ كَثِيرَةً الرَّجْفَانِ  
وَلِيَكَهُ مُضَرٌّ وَكُلُّ يَمَارِ  
فَلَيَبْنِكَهُ شَرْقُ الْبَلَادِ وَغَرِبَهَا  
وَلِيَكَهُ الطَّوْدُ الْمَظَمُ جَوَهُ<sup>(٢)</sup>  
وَالْبَيْتُ ذُو الْأَسْتَارِ وَالْأَرْكَانِ  
يَا خَاتَمَ الرَّسُولِ الْمَبَارَكَ صِنْوَهُ<sup>(٣)</sup>  
صَلَّى عَلَيْكَ مِنْزَلَ الْقَرَائِبِ

واستحالت المدينة المنورة إلى بركان يقذف بحمم الندب والبكاء ، واشتعلت  
نيران الحزن في كل صدر وفي كل قلب ، لو لا أنأخذ الصحابة يتلون في القرآن  
الكريم مثل قوله تعالى «إِنَّكَ مَيْتٌ وَلَا هُمْ مَيْتُونَ» «أَفَيْشَنِ مَتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ،  
كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» . فبدأت السكينة تنزل على نقوتهم ، وتابوا إلى رشدهم  
ليبلغوا رسالته المضيئة أطرافَ الأرض . وكان من ندبها فأحسن الندب حسنان ، وفيه  
يقول :

(١) كورت : سقطت ، والعصران : الغداة والعشى إلى أحجار الشمس .

(٢) الطود : الجبل ، وجوه : منخفضه .

(٣) الصنو : القريب والنغير .

بِطَيْبَةَ رَسْمٌ لِّرَسُولِ وَمَعْهُدٌ  
 وَلَا تَنْمِحِي الْآيَاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَةٍ  
 وَوَاضِحٌ آثارُ وَبَاقِ مَعَالِمٍ  
 عَرَفْتُ بِهِ رَسْمَ الرَّسُولِ وَعَهْدَهُ  
 فِي بُورْكَتْ يَا قَبْرِ الرَّسُولِ وَبُورْكَتْ  
 وَبَكْيٌ رَسُولُ اللَّهِ يَا عَيْنَ عَبْرَةٍ  
 وَجُودِي عَلَيْهِ بِالْمَسْمَعِ وَأَغْوَلِي  
 وَمَا فَقَدَ الْمَاضِونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ

مُنْيِرٌ وَقَدْ تَقْفُ الرُّسُومَ وَتَهْمِدُ  
 بِهَا مِنْبَرُ الْمَادِيِّ الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ  
 وَرَأَيْتُ لَهُ فِيهِ مُصْلَى وَمَسْجِدٌ  
 وَقَبْرًا بِهِ وَارَاهُ فِي التُّرْبَبِ مُلْجَدٌ  
 بِلَادِ ثَوَّى فِيهَا الرَّشِيدُ الْمُسَدَّدُ  
 وَلَا أَعْرَفْتُكَ الدَّهْرَ دَمْعُكَ يَجْمَدُ  
 لَقَدْ الَّذِي لَا مَثْلُهُ الدَّهْرَ يَوْجَدُ  
 وَلَا مَثْلُهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يُفَقَّدُ

وَقَدْ أَصْبَحَ الْقَبْرُ الْكَرِيمُ مَسْكَانًا يَتَطَبَّبُ بِهِ الْمُسْلِمُونَ كَلَمَا حَجَوْا أَوْ اعْتَمَرُوا ،  
 فَهُمْ يَزُورُونَهُ وَيَحْجُونَ إِلَيْهِ لِيُغْرِقُوا أَبْصَارَهُمْ فِي مَشَاهِدِهِ وَقُلُوبَهُمْ فِي رِسَالَتِهِ .  
 إِنَّهُ النُّورُ الَّذِي يَغْمُرُ أَفْشَلَهُمْ وَالسَّعَادَةَ الَّتِي تَمَلَّأُ عَوْقُلَهُمْ . وَإِنَّ زِيَارَتَهُ لَحُلْمٌ كُلُّ  
 مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ .

وَدَارَتْ بِالصَّحَابَةِ دُورَاتٍ مِنَ الزَّمْنِ ، ثُمَّ جَاءَتْ خَلَافَةُ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ  
 زَوْجِ فَاطِمَةَ بِنْتِ الرَّسُولِ ، فَانْقَسَمَ الْمُسْلِمُونَ ، وَقُتِلَ عَلَى بَطْعَنَةَ آثُمَةَ مِنْ يَدِ بَعْضِ  
 الْخَوَارِجِ ، وَأَفْضَى الْأُمْرُ إِلَى مَعَاوِيَةَ ، وَرَأَى أَنَّ تَكُونَ الْخَلَافَةُ وَرَاثَةً فِي أَبْنَائِهِ .  
 وَأَغْضَبَ ذَلِكَ طَائِفَةً كَبِيرَةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَخَاصَّةً أَهْلَ الْعَرَاقِ ، وَقَالُوا أَيْنَ آلُ  
 الْبَيْتِ ؟ وَأَيْنَ الْحَسَنِ بْنَ عَلَى حَفِيدِ الرَّسُولِ اللَّهِ ؟ .

وَلَمْ تَلْبِثْ عِقِيدةُ الشِّيَعَةِ أَنْ ظَهَرَتْ ظَهُورًا بَيْنَا ، كَانَ طَاهِرُ ثُورَ قَدِيمَةً ،  
 وَلَكُنَا لَا نَصِلُ إِلَى عَصْرِ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ حَتَّى تَرْقَعَ شَجَرَتِهَا ، وَتَتَطَوَّرُ الْحَوَادِثُ  
 وَيَصْرُعُ الْحَسَنِ بْنَ عَلَى وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى شِيعَتِهِ بِالْكَوْفَةِ بِمَكَانٍ يُسَمَّى «كَبَرْ بَلَاءً»  
 وَيُقْصَى عَلَى كُلِّ مَنْ تَحَدَّثَهُ نَفْسُهُ مِنْ أَبْنَائِهِ أَنْ يَطْلَبَ الْأُمْرَ بِهِ دونِ الْقَائِمِينَ  
 عَلَيْهِ سَوَاءٌ أَكَانُوا أَمْوَيِينَ أَمْ عَبَاسِيِّينَ .

وَفِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ كَانَ التَّشِيعُ يَتَحَوَّلُ عِقِيدةً ثَابِتَةً فِي نُفُوسِ مَنْ وَالَا عَلَيْهَا

وابناءه ، وكان الشعراً يكترون من نظم المراثي فيهم . ومن أهم من نصب نفسه لهذه الغاية في العصر الأموي الكُمَيَّةْ شاعر زيد بن على بن الحسين ، فله ديوان يسمى الماشميات ، وكله سخط علىبني أمية ورثاء لآل البيت ، وأهم من رثاهم في العصر العباسي دِعْبِيل في ميراثه المشهورة :

### مدارس آيات خلت من تلاوةٍ ومنزلٍ وحنيٍّ مُقْفِرٍ العَرَصَاتِ

ويريد بالمدارس الأماكن التي يدرس فيها القرآن الكريم ، فهذه المدارس عطلت كما عطل وعوا منزل الوحي النبوى . واستمر يذكر دور العلوين وأئمها خلت وأفقرت من أهلها ، ثم أخذ يذكر قبورهم في المدينة ومكة والمكوفة وذكر بلاء ، وما زال حتى قال موجهاً الحديث إلى من يلومه في تشيعه :

ملائك في أهل النبي فإنهم أحبابي ما عاشوا وأهل ثقابي  
فيأرب زدنى من يقيني بصيرة وزد حبهم يا رب في حسناى  
بنفسى أنت من كهول وفتية لفك عناء أو حل ديات<sup>(١)</sup>  
أحب قصي الرّحْمَن من أجل حبكم وأاجر فيكم أسرى وبناتي<sup>(٢)</sup>  
لقد حفت الأيام حول بشرها وإن لأرجو الأمان بعد وفاتي  
ولولا الذي أرجوه في اليوم أو غد لقطع قابي إثرهم حسراتي

والمرثية طويلة ، وكلها على هذا التحور بكاء لأهل البيت ومحنة ووجع شديد ، وهذه المرثية العامة في آل البيت كانت تقرن بها مرات خاصة كثيرة ، والطريف في هذه المراثي الشيعية أن شعراها ينافقون فيها عن عقيدة . ومن أجل هذه الناحية البارزة في تلك المراثي نجد لها تمتاز بمحوية قوية ، إذ العاطفة فيها تعمق الشاعر ، ومن هنا تصبح مشاعره فواردة حارة ، تقذف سيلًا ملتهباً .

ويدور بنا الزمن وإذا بنا في القرن الرابع للهجرة ، ويتحقق العلويون لشيعتهم

(١) المثأة : جمع عان وهو الأسير ، والديات جمع دية وهو المفرم الذي يدفعه من أجرم .

(٢) الرسم : القرابة .

شيئاً من حلمهم ، إذ يؤسسون الدولة الفاطمية بمصر والمغرب ، ويستولى بنو حمود العلويون على قرطبة من الأمويين ، ويصبح العراق وإيران تحت حكم البوهينيين الشيعيين ، فلا تجف الدموع التي تنحدر من آفاق الشيعة ، بل يجعلون لها مواسم معلومة ، كأن الدموع أصبحت رمز عقيدتهم ، وكأن الألم العنيف أصبح ترجمتها .

وكان أهم موسم للألم والدموع يوم عاشوراء ، وهو العاشر من المحرم ، الذي صرخ فيه قدیعاً الحسين فهذا اليوم كان يتحول إلى مأتم كبير في كربلاء ، إذ يلبس الشيعة المسوح ويبالغون في النوح واللطم والبكاء . ولا نصل إلى سنة ٣٥٢ للهجرة حتى يأمر معز الدولة البوهیی حاکم بغداد أهلها بأن يغلقوا حوازيهم ويعطّلوا أسواقهم في هذا اليوم احتفالاً به ، ولم يأمرهم بذلك فحسب ، بل أمرهم أيضاً بأن يتخدوا المسوح السوداء وأن يبکوا وينوحوا في طرقات البلد ، وأن تخرج النساء مشعثات الشعور مسدّات الوجوه قد شفقن ثيابهن ويدرن في البلد بالنوح واللطم !

وهذا النوح الدائري على الحسين وأل البيت أنتج ما لا يحصى من مرات ، وهي مرات متواتعة ولن نستطيع أن نعرض في هذا الكتيب كل ما قبل من ذلك . واقرأ هذه الأبيات للشريف الرضي يبكي جده الحسين وينوح عليه :

يا قتلاً قوَّضَ الدهرُ بِهِ عَمَدَ الدِّينِ وأَعْلَامَ الْمُهْدَى  
قُتلوهُ بَعْدَ عِلْمٍ مِّنْهُمْ أَنَّهُ خَامِسُ أَحْبَابِ السَّكِّىسَ<sup>(١)</sup>  
مُرْهَقًا يَدْعُوا لَا غَوْثَ لَهُ بَابَ بَرَّ وَجَدَرَ مَصْطَقَ  
وَبَأْمَامَ رَفَعَ اللَّهُ هَاهُ عَلَمًا مَا بَيْنَ تَسْوَانِ الْوَرَى  
أَىْ جَدَّ وَأَبَ يَدْعُوهَا ؟ جَدَّ ، يَا جَدَّ أَغْنَثُ ، يَا أَبا  
يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا فَاطِمَةَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُرْتَفَعِ

( ١ ) يشير إلى ما يروى من أن رسول الله التقى في كسراء يمني ببيت فاطمة ولطف منه به عليها وفاطمة والحسن والحسين ، وقال : هؤلاء عرق وأهل بيته .

كَيْفَ لَمْ يَسْتَعِجِلِ اللَّهُ لَهُمْ  
 بِانْقَلَابِ الْأَرْضِ أَوْ رَجْمِ السَّمَا<sup>(١)</sup>  
 حَلَّوْا رَأْسًا يَصْلُونَ عَلَى  
 جَدَّهُ الْأَكْرَمِ طَوْنَعًا وَبَابًا  
 مَيْتٌ تَبَكِّي لَهُ فَاطِمَةُ  
 وَأَبُوهَا وَعَلَى ذُو الْمَلَأِ  
 لَوْ رَسُولُ اللَّهِ يَحْيِيَ بَعْدَهُ قَدْ يَوْمَ عَلَيْهِ لِلعزَّا

ولا نرتاب في أن بعض هذه الأبيات كان يصبح به الناس في بغداد سليمة الشرييف وبعد حياته . فكل بيت منها يثير ويحسن ، بل يفجر الدموع أنهاًاراً . فلا غرو أن تعاقب الشيعة من عصر الشريف الرضي إلى عصرنا ينظمون المراثي في الحسين ، و وخاصة في بلدة « النجف » بالعراق ، فلكل شاعر هناك مراثيه التي تفيض بالألم . و يشارك شعراء النجف غيرهم من شعراء العراق المعاصرين ، و محمد مهدي الجواهري قصيدة عنوانها « آمنت بالحسين » يقول فيها :

فِيَابِنَ الْبَتَوْلِ وَحْسِيْ بِهَا  
 ضَمَانًا عَلَى كُلِّ مَا أَدَعَى<sup>(٢)</sup>  
 كُشْلَكَ حَمْلًا وَلَمْ تُرْضِعْ  
 وَيَابِنَ الْبَطِينِ بِلَا بِطْنَةَ<sup>(٣)</sup>  
 وَيَابِنَ الْفَقِيْحِ الْحَاسِرِ الْأَنْزَعَ<sup>(٤)</sup>  
 وَيَا عُصْنَ هَاشِمَ لَمْ يَنْفُتْحَ  
 بَازْهَرَ مِنْكَ وَلَمْ يُفْرِعَ<sup>(٥)</sup>  
 خَتَامَ الْقَصِيدَةِ بِالْمَطْلَعِ  
 نَمِنْ مُسْتَقِيمِ وَمِنْ أَظْلَعِ<sup>(٦)</sup>  
 يَسِيرَ الْوَرَى بِرَكَابِ الزَّمَا

(١) الرجم : الرمي بالحجارة .

(٢) البتول : فاطمة الزهراء .

(٣) البطين : من صفات علي بن أبي طالب ، ويقول إنه بطين بلا بطنية أى بلا شره ولا نهم ، والحسير : الأنزع الذي انحرس شعره عن جانبي جبهته .

(٤) يفرع : يخرج من فرع .

(٥) أظلع : أعرض .

وأنت تسير ركبَ الخلو د ما تستجدُ له ينبع

وعلى هذا النحو لا يزال مصريع الحسين حتى عصرنا يوحى لشعراء الشيعة  
بمراث هي الغاية في الحزن الممض والألم المحرق .

## ٥

## ندب الدول

الدول العربية التي سقطت في خلال التاريخ الوسيط كثيرة ، وقد كانت الدولة العربية زمن بنى أمية تشمل العالم الإسلامي كله ، وما غربت هذه الدولة في أفق التاريخ وبزغت الدولة العباسية ، حتى تراعي للعين أن الخيط الذي يضم هذا العالم ويربط بينه خيط واهن . وسرعان ما طمع الولاة في الأطراف ، وطمعوا إلى الاستقلال ، ونشأت القوميات في الغرب والشرق ، فإذا العالم الإسلامي دول لا تكاد تحصى . وما يرتفع نجم دولة ويبلغ عنان السماء ، حتى يميل إلى الغروب ، ولا تقوم دولة ويشتت ساعدها ، حتى تشيخ وتهرم وهي لا تزال في شبابها . وكأنهم لم يستطيعوا أن ينسوا أيامهم وحروفهم وتقسمهم قبائل في البلاهيلية ، فأعادوها جذعةً منذ العصر العباسى ، بل من قبله ، لولا قوة الأمويين وحسن تدبيرهم . وما كاد العباسيون يستولون على العرش حتى بدا التتصدع واضحاً في بناء الدولة ، وأخذ العرب لا يطمئنون ولا يهدعون في صفع من أصقاع العالم الإسلامي وأخذت الدول تقوم ثم تسقط متعاقبة ، وكثير من الدول كان يشيع بالعبارات وأشعار الشعراء .

وأول دولة بكاهها الباكون دولة بنى أمية التي سقطت سنة ١٣٢ للهجرة ، وأهم من بكاهها أبو العباس الأعمى الشاعر المكي الذي أخذ يرسل دمه على خلفائها ، وينهن لهم ولدولتهم أبينا ، وفيهم يقول :

لَيْت شُعْرِي أَفَاحَ رَأْمَهُ اللَّهُ  
كِ وَمَا إِنْ أَخَالْ بَائِثِيْفُ<sup>(١)</sup> إِنْسِي  
حِينْ غَابَتْ بَنُو أَمْيَةَ عَنْهُ  
وَالْبَهَالِيلُ مِنْ بَنُو عَبْدِ شَمْسِ<sup>(٢)</sup>  
خَطْبَاهُ عَلَى الْمَنَابِرِ فُرْسَا  
نُّ عَلَيْهَا وَقَالَة<sup>(٣)</sup> غَيْرَ خُرْسِ

وله فيهم أشعار ومراث أخرى ، وهي كلها تفيض بالعاطفة الصادقة .  
ونمضي في العصر العباسي ، وإذا بهرون الرشيد ينكب البرامكة نكتبهم  
المشهرة ، وكانوا قد استولوا على كل مراقب الدولة ، وعظم سلطانهم ، وجمعوا  
الشعراء من حولهم يغدقون عليهم عطاياهم ، فلما دالت دولتهم وقف الشعراء  
بيكونهم ويسبحون الدمع عليهم ، وفيهم يقول آشجع :

كَاتَمًا أَيَامُهُمْ كُلُّهَا كَانَتْ لِأَهْلِ الْأَرْضِ أَعْيَادًا  
وَيَقُولُ سَلْمَ الْخَاسِرُ :

هَوَتْ أَنْجَمُ الْجَدْوِيِّ<sup>(٤)</sup> وَشَلَّتْ يَدُ النَّدَى  
وَفَاضَتْ بَحْورُ الْجَوْدِ بَعْدَ الْبَرَامِكِ  
هَوَتْ أَنْجَمٌ كَانَتْ لِأَبْنَاءِ بَرَمَكٍ<sup>(٥)</sup> بِهَا يَعْرُفُ الْمَادِي طَرِيقَ الْمَسَالِكِ

ويقول الرقاشي ، وقد ذكر الفضل وأخاه جعفرا :

أَلَآنَ اسْتَرْحَنَا وَاسْتَرَاحَتْ رَكَابُنَا  
وَأَمْسَكَ مِنْ يُجْدِي وَمِنْ كَانْ يَجْتَدِي<sup>(٦)</sup>  
قَلْ لِلْمَطَايَا قَدْ أَمِنَتْ مِنْ السُّرَىٰ<sup>(٧)</sup> وَطَىٰ الْقَيَافَ فَدَفَدَّا بَعْدَ فَدَدِ<sup>(٨)</sup>

---

(١) **البيت** : ما انحدر من الجبل ، وبعكة أحياناً مختلفة لكثرة الجبال حولها ، وكلها تنتهي إلى بطائقها .

(٢) **البهاليل** : جمع بهالوك وهو السيد ، وبينو عبد شمس : بنو أمية ، عبد شمس : أحد أجدادهم في الجاهلية .

(٣) **قالة** : جمع قائل .

(٤) **الجدوى** : العطاء .

(٥) **يمجي** : يعطي ، **ويجتدا** : يستعمل ويستمن .

(٦) **الفداد** : الغلة .

وَقُلْ لِلْمُطَهِّيَا بَعْدَ فَضْلٍ تَعَطَّلٌ وَقُلْ لِلرَّازِيَا كُلَّا يَوْمَ تَجَدَّدٌ  
وَقُلْ لِلنَّاسِيَا قَدْ ظَفَرَتِ بِجَمْعِيْرِ وَلَنْ تَنْظَرَى مِنْ بَعْدِهِ بِمُسْوَدٍ  
وَنُظمَ فِي الْبِرَّامِكَةِ شِعْرٌ كَثِيرٌ ، وَخَاصَّةً لِأَنَّ الشُّعُرَاءَ مِنَ الْفَرَسِ يَكْوُنُونَ فِيهِمْ  
زَوَالُ السُّلْطَانِ مِنْ أَمْتَهِنْ وَتَحْوِلُهُ إِلَى غَيْرِهِمْ .

وَلَا قُتِلَ الْمُتَوَكِّلُ الْخَلِيفَةُ الْعَبَاسِيُّ الْمُشْهُورُ نَزَلَ الْحَزَنَ بِقَلْبِ شَاعِرِ الْبَحْرِيِّ ،  
وَكَانَ قَدْ قُتِلَهُ وَلِيُّ عَهْدِهِ وَطَافِقَةُ مِنَ الْتَّرَكِ الَّذِينَ اسْتَكْثَرُ مِنْهُمُ الْمُعْتَصِمُ ،  
وَاسْتَبْدَلَ بِهِمُ الْعَرَبُ وَالْفَرَسُ جَمِيعًا ، وَلَمْ يَلْبِسُوا أَنْ سَيْطِرُوا عَلَى الدُّولَةِ .

وَفَكَرَ الْبَحْرِيُّ فِيهَا صَارَتْ إِلَيْهِ الدُّولَةُ مِنْ ذَلِكَ ، وَفَكَرَ فِي الْفَرَسِ وَمَا قَدَمُوهُ  
لَهُ مِنْ خَدْمَاتٍ ، فَهُمُ الَّذِينَ أَقَامُوهَا ، وَهُمُ الَّذِينَ رَعَوُهَا خَيْرٌ وَرَعَايَةٌ ، حَتَّى إِذَا  
أَفْلَ نَجْمَهُمْ أَخْلَدَتِ الدُّولَةُ تَتَكَسَّسَ نَحْوَ مَغْرِبِهَا . وَمَرَّ الْبَحْرِيُّ بِالْمَدَائِنِ وَرَأَى  
إِيوَانَ كَسْرِيَّ : «قَصْرُ الْأَيْضِنْ» وَمَا بَيْنَ أَطْلَالِهِ وَرَسْوَمِهِ ، فَوَصْفَهُ وَصَفَّهُ بِلِيْغَيَا  
رَثَى فِي أَثْنَائِهِ صَانِعِيهِ . وَلَدَّ بَهِمْ ، وَمِنْ قَوْلِهِ فِيهِ :

حضرتْ رَحْلَى الْمَهْمُومُ فَوْجَهَتْ  
أَنْسَلَى عَنْ الْحَظْوَظِ وَأَسَى  
ذَكَرَتْنِيْهِمُ الْخَطْبَوُ التَّوَالِيَ  
وَهُمُ خَافِضُونَ فِي ظَلٍّ عَالٍ  
وَكَانَ الْجِرْمَازُ مِنْ عَدَمِ الْإِنْسِ  
لَوْ تَرَاهُ عَلِمْتَ أَنَّ الْلَّيَالِيَ جَعَلَتْ فِيهِ مَائِمَا بَعْدَ عُرْسِ

(١) العنس : الناقة القوية .

(٢) آسى : أحزن ، وأآل ساسان : أكسرة الفرس ، ودرس : دارس وعاف .

(٣) التوالى : المتتالية .

(٤) خالقون : راغدو العيش ، والعالى : القصر الأبيض ، ويحسن : يضعف ، ويختىء : يقول .

(٥) الجرمائز : بناء بمحوار القصر ، والرس : القبر .

ونقل بعد ذلك نقلًا بدليعًا صورة رآها منقوشة على حيطان الإيوان ، وهي تصور معركة بين الفرس والروم ، انتصر فيها الأولون . ثم استمر يصور أيادي الفرس على العرب ويبكيهم .

وما زال العباسيون يعانون من الترك وغيرهم حتى غزا هولاكو بغداد وخرابها ، وأزال خلافتهم ورثي بها وبالتأريخ الباهر العظيم في دجلة ، فبكى الشعراء من الأعمق ، ومن خير من بكى وناح شمس الدين الكوفي ، وفيهم يقول بأحدى مراثيه :

ما المنازل أصبحتْ لا أهلها  
أين الذين عهدهم ولعزم  
ذلًا تخزي معاقد التيجانِ  
كانوا نجومَ من اقتدى فلليمُ  
بيكى المدى وشعائرُ الإيمانِ  
أفتهمُ غيرُ الموادث مثلاً  
أفتهمُ قدِيمًا صاحبُ الإيوانِ<sup>(١)</sup>  
ما زلتُ أبكيهم وألم وحشة  
لهم متردم الأركانِ  
حتى رثَى لي كُلُّ مَنْ مَا وجَدَهُ  
وَجَدِي ولا أشجانه أشجانِي

ومن الدول التي أكثر الشعراء من بكائهم والنواح عليها دول ملوك الطوائف بالأندلس فإنهم لما استغاثوا بيوسف بن تاشفين ملك المرابطين في المغرب ضد الأسبان الشماليين في بلادهم ، ورأى ما هم فيه من ضعف ووهن شديد ، فكر في الاستيلاء عليهم حتى يحفظ للإسلام والعرب هذا الجزء الذي يكاد يتداعى ، ولم يلبث أن التقمهم ملوك وراء ملوك وراء دولة وراء دولة .

وشيئع شعراء الأندلس هذه الدول بالعبارات الغزار ، إذ كانوا يروعونهم خير رعاية ، وأهم الدول التي رثوها وبكونها دولة بنى الأقطبس في بطليوس ودولة بنى عباد في إشبيلية . أما الأولى فرثاها ابن عبلون بقصيدة طويلة طارت شهرها ، وهو يستهلها بقوله :

(١) يشير إلى إيوان كسرى .

الدَّفَرُ يَفْجُعُ بَعْدَ الْعَيْنِ بِالْأَقْرَبِ  
مَا لِيَلِيٍ ؟ أَقَالَ اللَّهُ عَزَّزَنَا  
فَإِلَكَاهُ عَلَى الْأَشْبَاحِ وَالصُّورِ  
مِنَ الْلَّيَالِي وَخَاتَهَا يَدُ الْغَيْرِ<sup>(١)</sup>

واسرسل يتحدث عن الدول التي دالت من الأكاسرة والعرب في عصورهم المختلفة حتى انتهى إلى بنى الأفطس فندبهم بمثل قوله :

بَنِي الْمَظْفَرِ وَالْأَيَامِ . مَا بَرِحْتُ  
مَرَاحِلًا وَالْوَرَى مِنْهَا حَلَ سَفَرِ  
سُحْقاً لِيُومَكُمْ يَوْمًا وَلَا حَلْتُ  
بِثَلَهْ لِيَلَةً فِي غَارِ الْعُمُرِ<sup>(٢)</sup>

وأما دولة بنى عباد ، فعلل خير من تفجع عليها ابن اللسانة ، وقد حل يوسف بن تاشفين المعتمد بن عباد آخر ملوکها مقيداً في أغلاله مع من بي من أسرته إلى أغصمات بالقرب من مراكش . ووقف ابن اللسانة نفسه على بكائه وبكاء أسرته ، وله قصيدة بديعة يصف فيها خروجه من إشبيلية محمولاً على سفن ابن تاشفين بنهر الوادي الكبير الذي يجري أمام بلدته ، وفيها يقول :

تَبَكَّى السَّهَّامُ بِمُزْنٍ رَاعِيَ غَادَ  
عَلَى الْبَهَالِلِ مِنْ أَبْنَاءِ عَبَادٍ<sup>(٤)</sup>  
وَكَانَتِ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ذَاتَ أَوْتَادٍ<sup>(٥)</sup>  
فِي ضَمَّ رَحْلَكَ وَاجْعَ فَضْلَةَ الزَّادَ  
خَفَّ الْقَطِينِ<sup>(٦)</sup> وَجَفَّ الزَّرْعُ بِالْوَادِي  
وَيَا مُؤْمَلَ وَادِيهِمْ لِيُسْكُنَهُ  
نَسِيَتُ إِلَى غَدَةِ النَّهْرِ كَوَافِرَهُ<sup>(٧)</sup>  
فِي الْمَشَاتِ كَأَمْوَاتٍ بِالْحَادِ

(١) من أمثال العرب : لا تطلب أثراً بعد حين ، وما البكاء : ماذا يفيد البكاء .

(٢) الغير : أحداث المهر .

(٣) سحقاً : بعده ، القابر هنا : المستقبل .

(٤) المزن : السحاب المنطر ، والبهالل : الساده .

(٥) الأوتاد : الجبال ، يقول إنهم كانوا أوتاد الدول في الأنجلوس كما أن الجبال أوتاد الأرض .

(٦) القطين : السكان .

(٧) المشات : السفن ، والأحاداد : القبور .

وَالنَّاسُ قَدْ مَلَأُوا الْعِرَبَيْنِ وَاعْتَبَرُوا  
حُطًّا الْقَنَاعَ فَلَمْ تُشَتَّرْ مُخْدَرَةُ  
حَانَ الْوَدَاعَ فَضَبَّجَتْ كُلُّ صَارَخَةٍ  
سَارَتْ سَفَاهَتِهِمْ وَالنُّوحَ يَصْبَحُهُمْ  
كَمْ سَالَ فِي الْمَاءِ مِنْ دَمْعٍ وَكَمْ حَلَتْ أَكَادِ  
مِنْ لَوْلَى طَافِيَاتِ فَوْقِ أَزْبَادِ<sup>(١)</sup>  
وَمُرْقَتْ أَوْجَهُ تَمْزِيقِ أَبْرَادِ<sup>(٢)</sup>  
وَصَارَخَ مِنْ مَقْدَائِرِ وَمِنْ فَادِ  
كَأْنَهَا إِبْلٌ يَمْدُو بِهَا الْحَادِي  
تَلْكَ الْقَطَائِعُ<sup>(٣)</sup> مِنْ قِطَعَاتِ أَكَادِ

وَمَا نَظَنَ شَاعِرًا اسْتَطَاعَ أَنْ يَصِلَ إِلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ أَبْنَ الْبَانَةِ فِي بَكَاءِ الدُّولَةِ  
الْعِبَادِيَّةِ فَقَدْ اقْطَعَ بِكَاهَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوَادِهِ .

وَعَلَى نَحْوِ مَا بَكَى شَعَرَاءُ الْأَنْدَلُسِ دُولَ الطَّوَافِيفِ بِبِلَادِهِمْ بَكَى شَعَرَاءُ مَصْرُ  
بعْضِ الدُّولِ الَّتِي لَمَعَتْ ثُمَّ أَفْلَتْ فِي أَفْقَهِمْ ، وَأُولَئِكَةِ إِسْلَامِيَّةِ بِبِكُوكُهُمْ  
دُولَةِ الْطَّوْلُونِيِّينَ ، وَفِيهِمْ يَقُولُ بَعْضُ الشَّعَرَاءِ :

كَانُوا مَصَابِيحًا لَدِي ظُلْمِ الدُّجَى  
يَسِّرُى بِهَا السَّارُونَ فِي الإِدْلَاجِ<sup>(٤)</sup>  
انْظُرْ إِلَى آتَارَمْ تَلْقَى هُنَّا  
عَلَمًا بِكُلِّ ثَنِيَّةٍ وَفَجَاجَ<sup>(٥)</sup>  
وَلَا زَالَتِ الدُّولَةُ الْفَاطِمِيَّةُ بَكَى عَمَارَةِ الْيَمِنِ عَلَيْهَا بَكَاءً ، فِيَهُ لَذَعْ وَحَرَارَةُ ،  
وَتَلْكَ قَطْعَةُ مِنْ بَكَاهَهُ عَلَيْهِمْ وَنَدِبِهِ لَهُمْ :  
رَمِيتَ يَادَهُرُ كَفَّ الْجَدِ بالشَّلَلِ  
هَدَمْتَ قَاعِدَةَ الْمَرْوُفِ عَنْ عَجَلٍ  
وَجِيدَهُ بَعْدَ حُسْنِ الْحَلِّ بِالْعَطَلِ<sup>(٦)</sup>  
سُقِيتَ مَهْلًا<sup>(٧)</sup> أَمَا تَمْشِي عَلَى مَهْلٍ

(١) العَرَبَيْنِ : ضفَّتِ النَّهَرُ ، وَاعْتَبَرُوا : تَعْجِبُوا .

(٢) الْأَبْرَادِ : الشَّيَابِ ، وَهُوَ هَذَا يَصُورُ نِسَاءَ بْنِي عَبَادِ وَبِهَا صَنَعَهُ أَثْنَاءَ الرِّحْيلِ مِنْ سَفَورٍ وَلَطْمٍ  
لِلْوُجُوهِ وَنَخْشُنُهُمْ بِالْأَظَافِرِ .

(٣) الْقَطَائِعُ : السُّفَنُ .

(٤) الإِدْلَاجُ : السَّيرُ بِاللَّيلِ .

(٥) الثَّنِيَّةُ : الْطَّرِيقُ فِي الْجَلْلِ وَيَشْلُهُ الْفَجَاجُ وَجَهَهُ فَجَاجَ .

(٦) الْعَطَلُ : التَّغْرِيدُ مِنْ الْحَلِّ .

(٧) الْمَهْلُ : النَّحَاسُ الْمَدَابُ ، وَهُوَ مِنْ حَلَابِ أَهْلِ النَّارِ الْمَذَكُورِ فِي الْقُرْآنِ .

وَاللَّهُ لَا فَازَ يَوْمًا بِحَسْرٍ مِنْهُمْ وَلَا نَجَأَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ غَيْرُهُ وَلِي  
أَئْمَةٌ خَلَقُوا نُورًا فَنُورُهُمْ مِنْ نُورٍ خَالِصٍ نُورٌ اللَّهُ لَمْ يَفِلْ<sup>(١)</sup>

وكان حريراً بعمارة أن يفرح كما فرح المصريون بزوال الدولة الفاطمية وتحول السلطان إلى صلاح الدين الذي أنقذ مصر من براثن الاحتلال الذي انتهت إليه هذه الدولة . وما نشأ في أن تشيع عمارة للقاطمين هو الذي جعل على بصره غشاوة ، فلم يشارك المصريين في أفراحهم بسقوط تلك الدولة . ومضي بعد الأيوبيين إلى المماليك إذ يقضى عليهم السلطان سليم العثماني سنة ٩٢٣ للهجرة ، ونرى ابن لياس يصبح لزوال دولتهم :

نَوَحُوا عَلَى مَصْرِ الْأَمْرِ قَدْ جَرِيَ مُصِيَّلُهُ الْوَرَى  
مُنْضَعُ الْعَيْنُ كَأَنَّهَا سِنَةُ الْكَرَى

وتحكم مصر بعد ذلك بالعثمانيين حكماً جائراً كله بطش واستبداد واستنزاف ثغراتها ودمائها ويزولون كما زالت الأسرة العلوية بعدهم . وطبعي أن لا يبكي العثمانيين ولا الأسرة العلوية بالـ فقد ذهبوا غير مأسوف عليهم بل ذهبوا مع فرح الشعب العميق بزوالهم لما أشعروا من ظلم وفساد في الحكم وبغي وطغيان شديد .

---

(١) يَفِلْ : يَأْفَلُ وَيَنْرُبُ .

## ندب البلدان

وإذا كان الشعراً يكتبوا بعض الدول الراحلة فإنهم يكتبوا أيضاً البلدان حين نزلت بها الحوادث الفلاشية ، أو ألمت بها بعض الدول الغاصبة . وفي كل مكان من العالم الإسلامي تجد هنا اليكاء ، في الشرق والغرب . أما في الشرق فعل أول بلدة حاقت بها كارثة ساحقة هي بغداد ، إذ حرقتها ابن طاهر قائده المأمون أثناء حصاره لأخيه الأمين ، فقد سلط عليها مجانيةه ، فتحولت ناراً أتت على كل شيء فيها ، وكأن قصورها التي طالما أشاد بها الشعراء لم تكن شيئاً مذكورة . وأثرت هذه الحادثة المميتة في قلوب كثير من الشعراء ، فقال بعضهم بتندبها وبيكيها :

بكت عين على بغداد لئلا فقدت غضارة العيش الأنيد  
أصابتها من الحساد عين فأفنت أهلها بالنجيني  
قوم آخر قوا بالنار قسراً وناحة تنوح على غريق  
وصاححة تنادي واصحاب وقائلة تقول أيا شقيق  
ومفترب بعيد الدار ملقي بلا رأس بقارعة الطريق  
ولا ولد يعوج على أبيه وقد هرب الصديق عن الصديق

وليس بغداد وحدها التي يبكىها الشعراء في العصر العباسي فقد يكتبوا البصرة حين اقتحمتها الزَّرْجَع على سُكَّانِهَا ، ويظهر أنهم كانوا يسمونهم الحسف والعذاب ويكلفونهم من العمل فوق ما يطيقون ويختملون ، فاتمرروا بهم ، وما هي إلا أن ثاروا عليهم ، فقتلواهم وخرقوا ديارهم وباعوه في الأسواق بيع العبيد . وأثر ذلك في نفس ابن الروى تأثيراً بليغ ، فنظم قصيدة طويلة في بكاء البصرة وأهلها يقول فيها :

كَمْ أَغْصَوْا مِنْ شَارِبٍ بِشَرَابٍ  
 كَمْ ضَنِينٌ بِنَفْسِهِ رَامٌ مَنْجَى  
 فَتَلَقَّوْا حَيَّنِهِ بِالْحَسَامِ  
 كَمْ أُخْرٌ قَدْ رَأَى عَزِيزٌ بَنِيهِ  
 وَهُوَ يُعْلَى بِصَارِمٍ صَمَاصَامِ  
 كَمْ رَضِيعٌ هُنَاكَ قَدْ فَطَمُوهُ  
 بِشَبَّا السِيفَ قَبْلَ حِينَ الْفَطَامِ  
 كَمْ فَتَاهٌ بِخَاتَمِ اللَّهِ بَكْرٌ  
 فَضَحَوْهَا جَهَراً بَغْيرِ اِكْتَامِ  
 كَمْ فَتَاهٌ مَصْوَنَةٌ قَدْ سَبَوْهَا  
 بَارِزاً وَجْهَهَا بَغْيرِ لَثَامِ  
 صَبَّحُوهُمْ فَكَابِدَّ الْقَوْمَ مِنْهُمْ طَولَ يَوْمٍ كَأَنَّهُ أَلْفَ عَامٍ

وصورَ تحريق الزنج لقصور البصرة ، وبكى رسومها وأطلالها ومسجدها ، واستنجد المسلمين واستغاث بهم على نصرتها ، ودعاهم أن يتفرعوا خيفافاً وشقاً ، حتى ينتقموا منهم شر انتقام .

ونقضى إلى عصر المطرب الصليبية فنجد الشعراء يكتبون مدن الشام التي كانت تسقط في أيدي الصليبيين ، ولم يكتبوا مدينة كما يكتبوا بيت المقدس حين استولى عليها الفرنج سنة ٤٩٢ للهجرة ، ومن طريف ما قيل فيها :

أَحَلَّ الْكُفُرُ بِالإِسْلَامِ ضَيْئَمًا يَطْوِلُ عَلَيْهِ الدِّينُ النَّحِيبُ  
 فَقُّوقُّ ضَائِعٌ وَحِمَى مُبَاحٌ وَسِيفٌ قَاطِعٌ وَدَمٌ صَبِيبٌ<sup>(١)</sup>  
 وَكُمْ مِنْ مُسْلِمٍ أَمْسَى سَلِيمًا وَمُسْلِمَةٍ هَا حَرَمٌ سَلِيمٌ  
 أَمَا اللَّهُ وَالإِسْلَامُ حَقٌّ يَدْافِعُ عَنْ شُبَّانٍ وَشَيْبٍ

على أن موجة الصليبيين لم تلبث أن دفعت بقوة إلى الوراء ، ولم تلبث أن حللت أشعار الفتح والظفر محل أشعار الندب والرثاء .

ومن البلاد التي بكاها المسلمين صقلية حين سقطت في أيدي النورمان حول منتصف القرن الخامس للهجرة ولشاعرها ابن خديس قصائد مختلفة يرثيها فيها ويندبهما ، ومن قوله في بعض قصائده :

أرى بلدى قد سامه الروم ذلةً  
وكان بقوى عِزَّه متقاوماً  
وكانت بلاد الـكفر تلبس خوفه فأشخى لذاك الخوف منهن لابساً

وفي نفس التاريخ هاجم البدو القيروان وخربوها ، وبكاهها شعراً منها هي الأخرى ، ومن قول شاعرها ابن شرف :

آهٌ للقيروان أنة شيجو عن فؤادي بمحاجم الحزن يصلي  
حين عادتْ به الديار قبوراً بل أقول الديار منهن أخلى  
بعد يومٍ كأنما حُشِّرَ الخلاء قُحْفَةً به عواريَ رَجَلَيْ  
مُزْقُوا في البلاد شرقاً وغرباً يسكنون الدموع هطلاً وَبَلَا

ولعل قطراء إسلامياً لم تُبَثِّكَ بلدانه ومدنه كما بُكِّيت مدن الأنجلوس وبلدانها ، فقد أخذ الأسبان الشماليون يستخلصونها لأنفسهم ، وأنحدرت تساقط من عصر ملوك الطوائف في حجورهم كما تساقط أوراق الخريف . وكانت كل مدينة تسقط لا تعود أبداً ، والمسلمون يرون ذلك رأي العين ، يرون ما يهدد ديارهم من غزو ودمار ، وكلماتهم متفرقة وأهواهم غير مجتمعة ينابذ الأخ أخاه وتنابذ المدينة أخيها ، والعدو على الأبواب يتربص بهم الدوائر . وما زال الشعراً هناك يختبرون ويندررون ويستغيثون ويستنصرون ، وكلما ضاعت بلدة أو مدينة ذرفوا الدموع حارة سخينة . ومن البلدان التي أكثر الشعراً من رثائها ونديها حين استولى عليها الأسبان طُلَيْطُلَةً وبَلَنْسِيَّةً وشاطبةً وقرطبةً وجَيَّانَ وإشبيليةً ، ومن أروع ما بُكِّيت به الأخيرة قول أبي البقاء الرُّنْدِيّ ، وقد عرض لما سُلب من البلاد قبلها :

اسألَّ بَلَنْسِيَّةَ ما شَأْنُ مُرسِيَّةٍ  
وَأَيْنَ شَاطِبَةُ أَمْ أَيْنَ جَيَّانُ  
مِنْ عَلَمٍ قَدْ سَعَا فِيهَا لَهُ شَانُ  
وَأَيْنَ حَمْصَ (١) وَمَا تَحْوِيهِ مِنْ نُزَّهَ

بِالْأَمْسِ كَانُوا مُلُوكًا فِي مَنَازِلِهِمْ  
 وَرَبُّ أُمَّةٍ وَطِفْلٌ حَيْلٌ يَنْهَا  
 وَطَفْلَةٌ مِثْلُ حُسْنِ الشَّمْسِ إِذْ طَلَعَتْ  
 يَقُودُهَا الْعِلْجُ<sup>(١)</sup> لِلْمَكْرُوْهِ مَكْرُوْهَةَ  
 لِمُثْلِ هَذَا يَذْوَبُ الْقَلْبُ إِسْلَامٌ وَإِيمَانُ  
 إِنْ كَانَ فِي الْقَلْبِ إِسْلَامٌ وَإِيمَانٌ

ويدور الزمن بنا دورات حتى نصل إلى العصر الحديث ، فإذا القصة تعود  
 فصوصها ، وإذا أوربا الشرقية تجمع أمرها أمام الخلافة التركية ت يريد أن تخرجها  
 من ديارها ، وتردها إلى آسيا على أعقابها وتكون حروب ودماء . وتُغْلِبُ تركيا  
 على أمرها من حين إلى حين ، وتصبِّع بعض بلدانها . ولشوق قصيدة يبكي فيها  
 «أدْرِنَة» حين استولى عليها البلغار سنة ١٩١٢ للميلاد ، وقد سماها الأندلس  
 الجديدة ، إشارة إلى أن الكارثة فيها تجديد لكارثة المسلمين في الأندلس العربية ،  
 فهما جرحان ، جرح قديم لم يتلهم بعد ، وجرح لا يزال ينزف بالدماء . وفي  
 هذه القصيدة يقول :

عِيسَى سَيِّدُكَ رَحْمَةُ وَحْيَةُ  
 فِي الْعَالَمَيْنِ وَعَصْمَةُ وَسَلَامُ  
 هُمْ لِلْإِلَهِ وَرُوحُهُ ظَلَامُ<sup>(٢)</sup>  
 كُلُّ أَدَاءٍ لِلأَذْيَ وَحِمَامُ  
 بَيْنَ الْبَيْوتِ كَأَنَّهُمْ أَغْتَامُ  
 وَلَهُ عَلَى حَدِّ السَّيْوَقِ فِطَامُ  
 وَنَنَاثَرْتُ عَنْ نَوْرِهِ الْأَكْامُ<sup>(٣)</sup>  
 لَمْ يَقُنْ عَنِ الْعَضْفِ وَالْأَعْوَامُ

الْيَوْمِ يَهْتَفُ بِالصَّلِيبِ عَصَابَةُ  
 خَلَطُوا صَلِيبَكَ وَالخَنَاجِرَ وَالْمَدَى  
 أَوْ مَا تَرَاهُ ذَبَّحُوا جِيرَانَهُمْ  
 كَمْ مَرْضَعٌ فِي حِبْرٍ نَعْمَنَهُ غَداً  
 وَصَبِيَّةٌ هُتَكَتْ خَيْلَةُ طَهْرَهَا  
 وَأَخْيَ ثَمَانِينَ اسْتَبَيْحُ وَقَارَةُ

(١) العِلْجُ : الكافر من المجم .

(٢) العَصَابَةُ : جمع عصابة وهي الجماعة ، وظَلَامٌ : جمع ظَلَامٍ .

(٣) الْمَسْلِيلَةُ : الروضة والشجر الملتئف .

ولا نكب الفرنسيون دمشق سنة ١٩٢٦. وسلطوا عليها مدافنهم وقد اندفعوا ،  
وأحالوها أنهارا من الدم وتلالا من الرماد والخراب بـ كاها شوق بـ قافيتـه المشهورة ،  
وفيها يقول :

أَحْقُّ أَنْهَا دَرَسَتْ أَحْقُّ  
وَهُلْ لِعَيْمَنْ كَأْمَسْ نَسْقُ  
مُهْتَكَةْ وَأَسْتَارْ تُشَقْ  
وَخَلَفَ الْأَيْكَ أَفْرَاخْ تُزَقْ  
وَرَاءَ سَمَاهِ خَطْفَهْ وَصَقْعُ  
إِذَا عَصَفَ الْحَدِيدُ أَحْرَ أَفْقُ  
بَكْلَ يَدِيْ مَضْرَبَجَهْ يُدْقُ  
رَبَاعُ الْخُلْدَ وَيَحْكُ مَادَهَا  
وَهُلْ عَرَفَ الْجَنَانِ مَنْصَدَاتْ<sup>(١)</sup>  
وَأَينْ دُمَى الْمَاقِرْ مِنْ حِجَالْ<sup>(٢)</sup>  
بَرَزَنَ وَفِي نَوَاحِي الْأَيْكَ<sup>(٣)</sup> نَارَ  
بَلِيلِ الْقَدَائِفِ وَالْمَنَابِيَا

وتجابوت مع شوق وشعراء العروبة في الشرق صيحات إخوانهم شعراء  
المهجر في الغرب ، ي يكون ويصيرون ويولون على ما أصاب دمشق من فظائع  
الفرنسيين ، ولنسبة عريضة من منظومة :

صَلِيلُ سَلاَحٍ وَقَرَعُ طَبُولٍ وَجُنْدُ قُسَّاةٍ تَسْقُّ طَهُولٌ  
وَفَوْقَ النَّيَاقِ جَاهَ الْقَبِيلِ تَدَلُّوا قَيْلَابَ بَجْبَبَ قَتِيلِ

ولعل بلدا عربيا في عصرنا لم يبكى الشعراـءـ كما بكوا فلسطينـ الشهيدةـ ، التي  
سالت دماء أبنائـهاـ في ساحتـهاـ ، وشرـدـ اليـهـودـ الـبـاقـيةـ مـنهـمـ في أـطـرافـ الـعـالـمـ  
الـعـرـبـيـ وـعـلـىـ المـشارـفـ وـالـحـلـبـودـ . ولا تزالـ المـأسـاةـ ، أوـ قـلـ لاـ يـزالـ مـائـهاـ قـائـماـ ،  
وـالـعـالـمـ الـإـسـلـامـيـ كـلـهـ يـليـسـ السـوـادـ مـنـ أـجـلـهـ ، وـيـعـلـنـ الـخـدـادـ عـلـىـ مـاـ أـصـابـهـاـ  
وـأـصـابـ الـعـربـ فـيـهاـ .

(١) منصدات : منستقات .

(٢) الماقر : القرف ، وال Hijal : جهاز المرؤوس .

(٣) الأيك : الشجر الكبير المتجمع .

وبنذ وَعْد «بلغور» لليهود والعرب يتظرون اليوم المشؤوم، يوم خروج أبناء عمومتهم من ديارهم ، وهو ما لم يحدث في العالم لا قدِّيما ولا حديثا ، فلم نسمع قبل اليوم أن أمة بُغت على أخرى ، وسلبها وطنها وخلدها وفرايديسها ، يعيثها في ذلك من يتشدقون بالحربيات . وحزن ذلك في نفس العرب فأبوا أن يتركوا عريئهم دون أن يلطخوه بالدماء ، وتعاقدت دولهم ، وخاضت غمار حرب رمحت لها الأرض والسماء ، وقد تعالي في أثنائها صياح الشعراء في البلاد العربية ، من مثل قول علي محمود طه من قصيده «نداء القيادة» :

أَخِي جَاؤَ الظَّالِمُونَ الْمَدِي  
فَقَ "الْجَهَادُ وَحْقَ الْفِدَا  
أَنْتُكُمْ يَغْصِبُونَ الْعَرَوْبَةَ  
مَجْدَ الْأُبُوَّةَ وَالشَّوَّدَدَا  
وَلَيْسُوا بِغَيْرِ صَلَيلِ السَّيُوفِ  
يَجْهِيُونَ صَوْتاً لَنَا أَوْ صَدَى  
فَجَرَّدُ حَسَامَكَ مِنْ عِنْدِهِ  
فَلِيُسَّ لَهُ بَعْدًا أَنْ يُنْمَدَا

والقصيدة كلها على هذا المنوال صرخ في العرب حتى يسارعوا لنجدية فلسطين التي تلأها اليهود للجيدين ، وهم يشنحون لها مذاهم على أعين العرب من مسلمين ومسيحيين .

وبنذ وقعت هذه الحرب المشؤومة وخرج أهل فلسطين من ديارهم ، وشعراء العرب في مختلف بلدانهم يبكون الوطن الضائع ، ويتفجعون عليه ، فهذا زكي الماسني يهتف في دمشق :

مَا هُزِّنَا لَكِ نَمُوتُ وَنَفِنِي  
وَنُبَكِّيُّ الْحَيَاةَ إِنْ نَحْنُ عِشْنَا  
نَحْنُ قَوْمٌ مَانَمَ فِينَا عَلَى الصَّبَّةِ  
مَأْيَيْتَ وَلَا قَلَ الْدَّهْرُ هُنَّا  
كَفَكَفَ الشَّعَرَ عَنْ مَرَائِي فَلَسْطِينِ  
يَنْ فَشِيرُ الدَّمَاءَ أَبْقَى وَأَغْنَى  
غَدَّنَا الْمَرْتَجِيَ كَمَا رَمْتَ آتِ  
بَاتِقَامٍ سِيفَسْلِ الْعَارِ عَنَّا

ويرتفع هتاف الشعراء في كل مكان ، فمن ذلك قول عادل النضبان في قصيدة له دعاها : «صوت العرب» :

كفاك يا غرب طغياناً وفسدةً  
 ورميك الشرق بالولايات والحربي  
 هذى فلسطينُ ما زالت مضرجةً  
 أرجاؤها بدم في الله منسكبٌ  
 شرّدتَ أبناءها ظلماً وستهمُ  
 إلى الردى عصباً تُلقى على عصبهِ  
 فلا الأذانُ ولا الناقوس يُسمعا  
 وهي المدى في الإسلام والصلبِ

ويقول محمد عبد الغنى حسن من قصيدة طويلة :

أرضَ البطولة هذه عبراتي  
 تهدي إليكِ وهذه حررتني  
 دهنتك من عصب الزمان بطانية  
 أفاقتْ منهومة الشهواتر  
 إلا على العذوات والفارات  
 لا تستقر على الثرى أحداقهم  
 كانوا على الإسلام منذ قيامه

ولقدوى طوقان قصيدة بعنوان « بعد الكارثة » تفتح فيها على الوطن  
 السليب ، ومن قولهما فيها :

يا وطني ما لك يُختنَى على روحك معنى الموت معنى العدم  
 جرحك ما أعمق أغواره كم يتزئَى تحت ناب الألم  
 ستنجلى الفمرة يا موطنى وييسح الفجرُ غواشى الظلم  
 والأملُ الضائعُ مهما ذُوى لسوف يُروى بلهيبٍ ودم

ونحن نأمل معها أن تكشف هذه الغمة سريعاً عن صدر فلسطين ، وأن تعود  
 إلى أبنائها مشرقة الجبين ، لم تزدها المحنَة التي ألمت بها وصهرتها صهراً إلا قوة فوق قوة  
 وقدسية فوق قدسية . إنه الصباح الذي ينتظره العرب جميعاً ، وإنهم لواصلون إليه  
 مهما دجت الدنيا ومهما طال الطريق .

## لِفَضْلِ الشَّانِي

### التَّأْيِين

١

### معنى التأيين

أصل التأيin الثناء على الشخص حياً أو ميتاً، ثم اقتصر استخدامه على الموتى فقط، إذ كان من عادة العرب في الجاهلية أن يقفوا على قبر الميت، فيذكروا مناقبه، ويعذّدوا فضائله، ويُشّهروا م賀امده. وشاع ذلك عندهم، ودار بينهم، وأصبح في سننهم وعاداتهم، ولو لم يقفوا على القبور كأنهم ي يريدون أن يحتفظوا بذكرى الميت على مر السنين.

ونحن نجد دائراً على ألسنة الرجال والنساء، فهم جميعاً لا يكتفون بتصوير شعورهم الحزين، بل يضيفون إليه إشادة بالميت ومناقبه، كأنهم لا ييكونون فقط من أجل رابطة الدم التي تربطهم به وزروله وراء أستار وأحجار، بل هم ييكونون فيه نموذج المروءة كما يتمثلها أهل البدية، ييكون فيه الكرم والشجاعة والوفاء وحماية الرجال وإغاثة الملهوف والحلم والألفة والحزن وركوب الصعاب والمساحة والقصاصحة والسيادة والشرف وكل ما يزيّن الرجل في رأيه من صفات وخلال.

وكأنما كان غرضهم من تأييinهم أن يصوّروا تصويراً تاماً مدى الحسارة والمصيبة في الفقيد. ونرى هنا وأصبح في تأيin النساء لأنهنها حضر ومعاوية، فهي تندبها بقلب محترق من جهة، وهي تؤيinهما لتصوّر فضائلهما وتوضح ما خسرته فيما قبلتهما.

وكان من عقائدهم أن القتيل لا يهدأ في قبره، حتى تصيب القبيلة

من دم قاتلية ، وكانوا يحرمون على أنفسهم الخمر وكل المللنات إلى أن يلتركوا وترثهم ، ودفعهم ذلك إلى أن يكتبوا مصيّتهم في القتيل وأن يسيغوا عليه من الخلال والخامد ما يشعل الحرب ويوجع نيرانها فلا تنطفئ أبداً.

وما حياتهم في الجاهلية إلا سلسلة حروب ومعارك طاحنة ، فكانوا لا يدفنون قتيلاً إلا ليستعلوا لدفن أخيه وبكافه وتأييشه والإشادة ببطولته وكرمه ، وما أعطى تقبيله من ماله وروجه . ولم يوثقوا أيقاظهم وقتلامهم فحسب ، بل أبتووا أيضاً أشرافهم وسادتهم وإن ماتوا حتف أنوفهم ، فخرأ بهم واعتزا . وكانوا يجبرون على القبور ، فلن استعاد ذيبر سيد أو شريف حل أهلُه مختفَته ، وكثيراً ما ذبحوا على أجذاثهم لإبلهم وخيلهم ، كأنما يريدون أن يرضوا عظامهم ، وأن يعترفوا لهم بوفرة ما ذبحوا للناس من إبل وأنعام . ودائماً نجدهم يستسقون لهم السحاب ، ويستنزلون لهم الغيث حتى تُسْرِع قبورهم وتصبح رياضاً عاطرة .

وكل ذلك احتفال بالميّت ومجيده، وبُيُّضَّة عليه وعلى ذكراه، وكان أهم ما يخلده في رؤيّهم هذه الأبيات من الشعر التي يصوغ فيها الشاعر عاسنه وبناقبه ، وكأنه يريد أن يمحفها في الأذهان حفراً ، حتى لا تمحي على مر الزمان ، وحتى لا يصيّبها شيء من زوال أو نسيان . إنها كل ما يملك ليسقط على الميت بينهم ول يجعله دائماً مثالاً أمامهم .

## تأييin الخلفاء والوزراء

هذه الصورة التي ذكرناها للتأييin في الجاهلية ، والتي كانت تعتمد على الخلال والمناقب التي يحترمها العربي القديم ويجلها في الرجل ، والتي تجمعها كلمة المرودة ، لم تثبت أن دخلت عليها تعديلات مع ظهور الإسلام ورسالته السماحة فإنه عَدَلَ في المثل الأعلى عند العرب ، ورفع كثيراً من الخلال ووضع مكانها

## خلافاً جديدة .

لقد كان العربي في الجاهلية يعد سفك الدماء حسنة كبيرة من الحسنات ، فجاء الإسلام محظياً للدماء رافعاً لما كان منها في القديم ، كما رفع كثيراً من الآثار الجاهلية ، وأقام مكانها آثار جديدة من العدل والتقوى والزهد في الحياة ، وإن خلاص الرجواه لله . وهذه المثالية الجديدة كان لها شأنها في الرثاء ، فقد أخذت تحل فيه صفات لم يكن العربي الجاهلي يعني بها ولا كان يفكر فيها . ويتضح ذلك في تأيين الخلفاء ، إذ كانوا أصحاب الدولة الإسلامية والقائمين على نشر تعاليمها ، واحترام سُنّتها في الجزيرة العربية وخارج الجزيرة . فطبيعي أن يفكر الشاعر أول ما يفكر حين يلم بتراثهم في الدولة من بعدهم وما سلقوه في حكمهم من عَدْل ، وما أخذوا به أنفسهم من طاعة الله ورسوله والعمل بدعوته فهم خلفاؤه ، وهم أمناؤه على المسلمين من حولهم وعلى رسالته وما تضمنه به النسوس من مُثُلٍ وصفات نبوية .

وأول خليفة للرسول صلى الله عليه وسلم هو أبو بكر الصديق الذي حل لواء الدعوة الإسلامية من بعده وتناول مصاييحها ، فأضاء بها شرقاً وغربيها : بلاد فارس والشام بعد أن لم يشتات العرب المبعث في الجزيرة ، ودفعه دفعاً إلى الخارج ، فتراموا كالموج ، لا يحول بينهم وبين ما يريدون حائل ، وكأنما ناولهم بيده الكريمة الكرة الأرضية ليزرعوا في أي مكان شاعوا الدعوة الإسلامية ، ويَمْجِذُوا لله ولأنفسهم ثمارها ، وفيه يقول حسان مؤبنا :

بسند

إذا تذكرت شجواً من أخي قترة  
خير البرية أتقها وأعد لها  
الثاني اثنين وال محمود مشهد  
وكان حب رسول الله قد علموا

فاذكر أخاك أبا بكر بما فقل  
بعد النبي وأوفاها بما فعـلا  
وأول الناس طرراً صدق الرسـلا

وحسان يتحدث في تأييذه لأبي بكر عن فضائله المعروفة عند المسلمين ، إذ يعرض لمرتبته من الرسول ، وكيف كان صاحبه في الغار وفي الهجرة من مكة

إلى المدينة ، ويدرك أنه كان أول المصدقين به وبرسالته ، ولذلك دعى الصديق . وكل ذلك ذاته مستفيض عن أبي بكر ، أما تقواه وزهده وصالح سعيه في الدين وإذلاله للدنيا وإعزازه للآخرة ، فكل ذلك مشهور بالوجه الصحيح والشهادة الثابتة ، وأما رفقه المسلمين وعلمه بينهم وما شئت من سيرة ذكية نقية طاهرة ، فالآمة الإسلامية مجتمعة عليه والدلالة اليقينية قاطعة به . نَصَرَ اللَّهُ وَجْهَهُ .

وليس هناك ريب في أن تأيین حسان جدید في اللغة العربية ، فهو لم يتحدث حديث الباھلیین عن موتهم ، وإنما تحدث حديث المسلمين ، تحدث بسیرة لم تكن تعرفها الباھلیة ، فيها البر والعدل والتقوى والإسلام ، وفيها الخير ومحبة الرسول وإیثاره على كل الأصحاب والأنصار . وبهذه الحال والمناقب الجديدة كانت فاجعة الإسلام والمسلمين فيه .

وخلال عمر ، فسار في الناس بسيرته وسیرة الرسول صلی الله علیه وسلم من قبله واقتعد من العدل والزهد في الدنيا مکاناً تقطع الرقب دونه . وما زال يحفظ الدولة بل ما زال يمد في أطناها شرقاً وغرباً ، والدنيا ترتفع إلى العرب من تحت أقدامه وهم يجوبونها فاتحين مجاهدين في الله ورسوله حق الجھاد ، قد استحبوا الآخرة الباقية وآثرواها على الدنيا الفانية ، والعالم القديم يلهج باسمه ، وجنوده منصورة في كل مكان يسبحون بالاء ربهم وما أفاءه على الإسلام . ولم تلبث أن امتدت إليه يد آثمة في الظلام ، فطعنه أبو لؤلؤة المجوسي طعنة مسمومة ، وهو قائم يصل في المحراب . فبكاه المسلمون وأبنوه تأيينا رائعاً ، فمن ذلك قول الشماخ :

جَزَى اللَّهُ خَيْرًا مِنْ إِمَامٍ وَبَارَكَتْ  
فَنْ يَجْزِي أَوْ يَرَكِبْ جَنَاحِي نَمَاءَ  
لِيُدْرِكَ مَا قَدَّمْتَ بِالْأَمْسِ يُشْبِقْ  
بَوَائِجَ<sup>(۱)</sup> فِي أَكَامِهَا لَمْ تَقْتَقِي  
أَبْعَدْ قَتِيلِي بِالْمَدِينَةِ أَظْلَمَتْ  
لِهِ الْأَرْضُ تَهْرُبُ الْمِضَاهَ<sup>(۲)</sup> بِأَشْوَقِ

(۱) بوائج : جمع بائجة وهي الذاھية .

(۲) العشاء : شجر ، وأسوق : جمع ساق .

تظل الحصانُ الْبِسْكُرُ يُلْقِي جَنِينَهَا ثَنَّا<sup>(١)</sup> خَبَرٌ فوق المطى معلق

وهو يستهل كلامته بالدعاء لعمر أن يهزيه الله عن الرعية خيرا وأن يبارك أديمه الممزق بسكنين أبي لؤلؤة . ثم انتقل يتحدث عن إمارته على المسلمين واستصلاحهم وفقد مصالحهم ، فقال إن من أراد إن يبلغ ذلك أو يرتقى إلى غايته حتى لو ركب جناحى نعامة فإنه سيظل حسيرا مسبوقا . وتوجه إليه بالخطاب يقول له إنك قضيت أمورا وأحكمتها بجميل رأيك وتركت وراءها دواهى لا تزال في أكمامها وأغطيتها لم تُفْتَنَ ولم تُكْشَفَ . ثم أخذ يتحدث عن فظاعة الحادثة متعجباً أن يورق ويهرش شجر العضاه بعد أن نزلت المسلمين هذه الفاجعة التي لم تسمعها النساء حتى سقط حَمْلُهُنَ استشعاراً لما تطاوى من شر مستطير .

وهذه الصورة من الرثاء جديدة جدة واضحة ، فإن الشاعر لم يدع لعمر بأن تنزل السحب بقبره كما كانوا يدعون في الجاهلية ، بل دعا الله له ، واستمطر رحمته عليه ، ثم تحدث عن سياساته للMuslimين وأمورهم مستعظاماً للكارثة التي سقطت عليهم كأنها الصاعقة .

وخلف عمر عثمان ، وكانت في عهده أول فتنة في الإسلام ، إذ ثارت به طائفة من شذوذ العرب ، وما زالوا به حتى قتلوا وهو يتلو القرآن الكريم ، فقال حسان:

ضَحَّوْنَا بأشْمَطَ<sup>(٢)</sup> عَنْوَانَ السُّجُودِ بِهِ يَقْطَعُ اللَّيلَ تَسْبِيحًا وَقَرَآنًا  
وَخَلْفَهُ عَلَى<sup>٣</sup> فَلَمْ يُسْتَطِعْ أَنْ يَلْمِمَ مَا تَشَعَّثْ إِذْ طَعْنَتْ يَدِ طَائِشَةِ حَالَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ  
مَا يَرِيدُ مِنْ جَمْعِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى كَلْمَةِ سَوَاءٍ ، فَذَهَبَ إِلَى رَبِّهِ راضِيَا مَرْضِيَا ،  
وَفِيهِ يَقُولُ أَبُو الْأَسْوَد الدُّؤَلِيَّ :

أَفِي شَهْرِ الصِّيَامِ فَعْتَمُونَا بِخَيْرِ النَّاسِ طُرُّا أَجْمِعِينَا  
قَتَلْمَ خَيْرَ مِنْ رَكْبِ الْمَطَالِيَا وَخَيْسَهَا<sup>(٣)</sup> وَمِنْ رَكْبِ السَّفَيْنِا

(١) ثنا : ثانع ، وتعليق الخبر فوق المطى : كناية عن أنه سارت به الركبان وتقاذفه البلدان .

(٢) أشmet : شالب .

(٣) خيسها : ذالها .

ومن لبس العمالـ ومن حذـاهاـ ومن قرأـ الشانـ والمثـناـ<sup>(١)</sup>  
يـقـيمـ الـدـينـ لاـ يـرـتـابـ فـيهـ وـيـقـضـىـ بـالـفـرـائـضـ مـسـتـبـينـاـ

و واضح أنه يؤوبه بمحامد وبناقب إسلامية خالصة ، فهو خير الناس دينا وهب نفسه لربه يتلو قرآنـه مثـانـيه ومثـنـينـ ، ويـقـيمـ شـريـعـتهـ عـلـىـ السـلـحـودـ وـالـفـرـائـضـ التـيـ شـرـعـهـ إـلـاسـلامـ ، فـهـوـ الـخـلـيقـةـ التـقـىـ الصـالـحـ العـدـلـ الـذـىـ سـارـ عـلـىـ الطـرـيـقـ النـيـرـ لاـ يـحـيـدـ وـلـاـ يـمـيلـ ، كـأـنـهـ قـسـطـاسـ الدـينـ المـسـتـقـيمـ وـمـعـيـارـهـ السـلـامـ .  
وـيـقـضـىـ فـيـ الدـوـلـةـ الـأـمـوـيـةـ فـنـجـدـ مـعـ وـفـاةـ كـلـ خـلـيقـةـ مـرـاقـيـ مـخـتـلـفـةـ ، وـلـعـلـ أـمـمـ خـلـيقـةـ رـثـاءـ الشـعـرـاءـ عـمـرـ بـنـ عـبـدـ الـعـزـيزـ ، إـذـ سـارـ فـيـ النـاسـ سـيـرـةـ عـادـلـةـ زـاهـدةـ ،  
كـلـهـاـ تـقـوـىـ وـخـشـيـةـ مـنـ اللهـ ، وـإـيـثـارـ لـلـدـارـ الـبـاقـيـةـ ، وـفـيـهـ يـقـولـ جـرـيرـ :

يـنـعـيـ النـعـمـاءـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ لـنـاـ  
يـحـمـلـتـ أـمـرـاـ عـظـيـمـاـ فـاصـطـبـرـتـ لـهـ  
فـالـشـمـسـ طـالـعـةـ لـيـسـتـ بـكـاسـفـةـ  
يـاـ خـيـرـ مـنـ حـجـجـ بـيـتـ اللهـ وـاعـتـمـراـ  
وـقـتـ فـيـهـ بـأـمـرـ اللهـ يـاـ عـمـراـ  
تـبـكـيـ عـلـيـكـ نـجـومـ الـلـيـلـ وـالـقـمـرـ

وـجـرـيرـ يـذـكـرـ لـهـ تـقـواـهـ وـعـبـادـتـهـ وـحـجـجـ بـيـتـ اللهـ ، وـيـفـضـلـهـ عـلـىـ كـلـ الـمـسـلـمـينـ  
فـيـ صـلـاحـهـ وـزـهـدـهـ ، وـيـشـنـىـ عـلـىـ اـضـطـلاـعـهـ بـأـمـرـ رـعـيـتـهـ ، وـإـقـامـتـهـ لـشـرـيعـةـ رـبـهـ ،  
ثـمـ يـصـوـرـ عـظـمـ الـمـصـيـبـةـ فـيـهـ ، فـيـقـولـ إـنـ الشـمـسـ طـالـعـةـ غـيـرـ كـاسـفـةـ تـبـكـيـ عـلـيـهـ  
نـجـومـ الـلـيـلـ وـالـقـمـرـ .

وـيـدـورـ الزـمـنـ ، وـيـذـهـبـ الـأـمـوـيـونـ وـيـأـتـيـ الـعـبـاسـيـونـ ، وـيـكـثـرـ الشـعـرـاءـ ،  
وـيـكـثـرـ الرـثـاءـ ، وـخـاصـةـ إـذـ كـانـ الـخـلـيقـةـ عـادـلـاـ ، لـاـ يـرـيدـ غـيـرـ رـبـهـ بـعـدـهـ ،  
وـلـسـلـمـ الـخـاسـرـ فـيـ ثـالـثـ خـلـفـائـمـ الـمـهـدـىـ يـرـثـيـهـ وـيـؤـوبـهـ :

وـبـاـكـيـةـ عـلـىـ الـمـهـدـىـ عـبـرـىـ  
وـقـدـ خـشـتـ مـحـاسـنـهـ وـأـبـدـتـ  
كـأـنـ بـهـاـ وـمـاـ جـنـتـ جـنـوـنـاـ  
غـدـائرـهـ وـأـظـهـرـتـ الـقـرـونـاـ<sup>(٢)</sup>

(١) سـلـاـمـ : قـدـرـهـ وـقـطـمـهـ ، وـالـمـثـانـ وـالـمـثـنـ : آـيـاتـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ .

(٢) الـقـدـارـ وـالـقـرـونـ : خـصـلـ الـشـعـرـ .

لَئِنْ بَلِّيَ الْخَلِيفَةَ بَعْدَ عَشْرِ<sup>(١)</sup>  
 سَلَامُ اللَّهِ غُدُوَّةَ كُلِّ يَوْمٍ  
 عَلَى الْمَهْدِيِّ حِينَ ثَوَى رَهِينَا  
 تَرَكَنَا الدِّينَ وَالْدُّنْيَا جُمِيعاً

وإذا كان الخلفاء العباسيون قد سالت على قبورهم دموع الشعراة فإن الخلفاء الفاطميين في مصر قد أهاجورهم أيضاً حين وفاتهم، فثروا الدموع الغزار على أجذاثهم ، فمن ذلك قول حظي الدولة أبي المنقب عبد الباقي في رثاء المستنصر :

وَلَيْسَ رَدَى الْمُسْتَنْصَرِ الْيَوْمَ كَارَادِي<sup>(٢)</sup> وَلَا أَمْرُهُ أَمْرٌ يُقَاسُ بِهِ أَمْرٌ  
 لَقَدْ هَابَ مَلِكُ الْمَوْتِ إِتْيَانَهُ ضُحَّى  
 فَفَجَأَهُ لَيْلًا وَلَمْ يَطْلَعْ الْفَجْرُ  
 فَأَجْرَى عَلَيْهِ حِينَ مَاتَ دَمَوْعَنَا  
 سَمَاءً ، فَقَالَ النَّاسُ لَا بَلْ هُوَ الْقَطْرُ  
 وَقَدْ بَكَتِ النِّسَاءُ صَبَّرَاً وَإِنَّهُ  
 لِيَكِيهِ مِنْ فَرَطِ الصَّابِ بِهِ الصَّبَّرُ

وهذا ندب وبكاء ، وكان يشيع عند الشيعة كما قدمنا في غير هذا الموضع بكاء آل البيت ، فتناول الشعراة قبساً من هذا البكاء ، وكتبوا عليه مراثيم في الفاطميين .

وكلما وجِدَتْ خلافة وجد معها هذا البكاء وما يُطْبُوَى فيه من تأبين ، نجد ذلك عند خلفاء بنى أمية في الأندلس منذ عبد الرحمن الناصر ، كما نجد له عند خلفاء المغرب في دولة المختلفة من مُوَحَّدين وغيرهم ، إذ كان ذلك سُنَّةً في العالم الإسلامي ، لا حين يموت الخلفاء فحسب ، بل حين يموت الأعيان والأشراف .

وكان للوزراء نصيبيهم وحظتهم من الرثاء ، وخاصة حين ينكبهم الخلفاء ، ومن بكاهم الشعراة كثيراً من وزراء الدولة العباسية ابن الزيات وزير الموكل ،

(١) يشير إلى أنه ولـ الخلافة مدة عشر سنوات .

(٢) الردى : الموت .

و فيه يقول الحسن بن وهب :

يُكَادُ الْقَلْبُ مِنْ جَزَعٍ يَطِيرُ  
إِذَا مَا قِيلَ قَدْ هَلَكَ الْوَزِيرُ  
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! هَدَمَتْ رُكْنًا  
عَلَيْهِ رَحْمَكُ كَانَ تَدُورُ  
سَيِّكِي الْمُلْكُ مِنْ جَزَعٍ عَلَيْهِ  
وَتَبَكَّى حِينَ تَضَطَّرُبُ الْأُمُورُ

ومن الوزراء الأندلسية الذين بکاهم الشعرا المنصور بن أبي عامر وزير هشام الملقب بالمعتد، وهو شخصية فلدة، وكان له مجلس معروف كل أسبوع يجتمع فيه أهل العلم والأدب ، وهو الذي بنى مدينة الزاهرا بالقرب من قرطبة ، وله حروب وغزوات كثيرة في الأسبان الشماليين ، وما قيل فيه وكتب على قبره :

آثَارُهُ تُنْبِيَكَ عَنْ أَوْصافِهِ حَتَّى كَأْنَكَ بِالْعِيَانِ تَرَاهُ  
تَالَّهُ لَا يَأْتِي الزَّمَانُ بِمُشَاهِدٍ أَبْدًا وَلَا يَحْمِي التَّغُورَ سَوَاهُ

ومن الوزراء المشهورين الآخر عهد بنى أمية هناك حسان بن مالك بن أبي عبدة ، وفيه يقول صديقه أبو عامر بن شهيد من مرثية طويلة :

أَفَ كُلُّ عَامٍ مَصْرُعٌ لِعَظِيمٍ ؟  
وَكَيْفَ اهْتَدَى فِي الْخَطُوبِ إِذَا دَاجَتْ  
مُضِي السَّلَفُ الْوَضَاحُ إِلَى بَقِيَّةَ  
كُفْرَةَ مَسُودَ الْقَمِيصِ بَهِيمٍ<sup>(١)</sup>  
أَبَا عَبْدَةِ إِنَا غَدَرْنَاكَ غَيْرَ ذَمِيمٍ  
رَجَعْنَا وَغَادَرْنَاكَ غَيْرَ ذَمِيمٍ  
أَنْخَذْلُ مِنْ كَنَا نَرُودُ بِأَرْضِهِ  
وَنَكْرَعُ مِنْهُ فِي إِنَاءِ عِلُومٍ<sup>(٢)</sup>  
وَيَجْلُو الْعَمَى عَنَا بِأَنْوَارِ رَأْيِهِ

(١) يقول إنه لم تبق إلا بقية قليلة من السلف الأغر ، وهي تشبه في قلتها الغرة في الفرس الأسود ، والبهيم : الملاحسن السواد .

(٢) نرود : من راد العشب أى طلبه ، ونكروع : نشرب .

وعلى نحو ما أكثر شعراء الأندلس من رثاء وزرائهم أكثر المصريون من رثاء من استوزره الفاطميون وغيرهم، وما قيل في طلائع بن رزيلك:

أَفِي أَهْلِ ذَا النَّادِي عَلَيْمٌ أَسَائِلُهُ  
فَإِنِّي لَمْ بِي ذَاهِبٌ لِلَّبَّ ذَاهِلُهُ  
سَعَتُ حَدِيثًا أَحْسَدَ الصُّمَّ عِنْدَهُ  
وَيَذْهَلُ وَاعِيَهُ وَيَخْرُسُ قَاتِلُهُ  
وَإِنِّي أَرَى فَوْقَ الْوِجْهِ كَآبَةً  
تَدَلُّ عَلَى أَنَّ الْوِجْهَ ثَوَاكِلَهُ

ورثاء وزرائنا في العصر الحديث يحتل مكاناً بارزاً في شعر حافظ وشوق ، ولآخر في رثاء مصطفى فهمي أحد رؤساء الوزارة المصرية في خاتمة القرن الماضي وفاتحة هذا القرن :

يَا أَيُّهَا النَّاعِي أَبَا الْوَزَرَاءِ  
هَذَا أَوَانُ جَلَانِلِ الْأَبْنَاءِ  
حُثَّ الْبَرِيدِ مُشَارِقًا وَمُغَارِبًا  
وَارْكَبْ جَنَاحَ الْبَرَقِ فِي الْأَرْجَاءِ  
وَاسْتَبَكِ هَذَا النَّاسَ دَمَعًا أَوْ دَمًا  
فَالْيَوْمُ يَوْمٌ مَدَامٌ وَدَمَاءٌ  
لَمْ تَنْعَ لِلأَحْيَاءِ غَيْرَ ذَخِيرَةٍ  
وَلَتْ وَغَيْرَ بَقِيَةِ الْكُبَرَاءِ

ووراء شوق كثير من الشعراء الذين رثوا وأبسو من توفوا من الوزراء ، تسعمهم في ذلك الصحف اليومية التي تخرج مع كل صباح ومساء .

## تأبين الأشراف والأجواد والقواد

لم يترك شعراً علينا شريفاً على مر العصور دون أن يقفوا بقبره وينثروا مداجعهم عليه . وكان مقياس الشرف في الجاهلية التيز في القبيلة بالكرم والشجاعة والسيادة ، ومن أقدم المراثي التي نذكرها في هذا الجانب مرثية أوس بن حجر في

فضالة بن كلثمة الأسدى ، وفيها يقول :

أيتها النفسُ أجيٰ جَزَعاً  
إنَّ الَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَمَا  
إِنَّ الَّذِي جَمَعَ السَّاحَةَ وَالنَّجَّةَ  
مَهْ وَالْحَزْمُ وَالْقُوَّى مُجْمَعَاً  
أَوْدَى<sup>(١)</sup> وَهُلْ تَنْفَعُ الإِشَاحَةُ مِنْ  
أَمْرٍ لَمْ قَدْ يَحْاولَ الْبَدَاعَةَ  
الْأَلْمَعِيُّ الَّذِي يَطْنَنُ لَكَ ॥ طَنَ كَانَ قَدْرَأَيْ وَقَدْ سَمَّا<sup>(٢)</sup>  
الْخَلْفُ الْمُتَلَفُ الرَّزَّأُ لَمْ يُمْتَعْ بِضَعْفِهِ وَلَمْ يَمْتَطِ طَبِيعَا<sup>(٣)</sup>

وهو يدور في تأبيه حول المعانى والصفات التي كان يقتربها العرب في  
الباھھلية ، والتي كانوا يطلبونها في أشرافهم وأصحاب النباھة والسيادة . وما تزال  
هذه التھھل والمايئتها دائرة على ألسنة الشعراء في مرايئهم حتى عصرنا الحاضر .  
ونقضى بعد العصر الباھھل إلى العصر الإسلامي ، فتلقى الأرض بكتوزها إلى  
حجور العرب ، وت تكون طبقة كبيرة من الأشراف ، يكون من بينها الولاة وكبار  
القواد والأجواد ، وهي لا تقف عند حد ، فقد بالغ العرب في طلب المديح وأن  
تجرى ألسنة الشعراء فيهم بالثناء العطر ، فكانوا إدار حلوا عن دنياهם شيعوه بالعبارات .  
ومن طريف ما شاع على الألسنة في العصر الإسلامي مطلع قصيدة ابن قيس  
الرقيّات في شريف وقائد من قواد العراق هو طلحة الطلحات ، إذ يقول :

نَسَرَ اللَّهُ أَعْظَمًا دُفِنُوهَا بِسْجُونَ طَلْحَةَ الطَّلْحَاتِ

ولعل الشعراء لم يرحلوا إلى وال في هذا العصر كما رحلوا إلى عبد العزيز بن  
مروان وإلى أخيه عبد الملك على مصر ، فقد كان كعبة القاصدين ، وملجأ  
المعززين والمحتجزين ، وللفرزدق يرثيه :

ظَلَوا عَلَى قِبْرِهِ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَقَدْ يَقُولُونَ تَارَاتِ لَنَا الْعَبَرُ<sup>(٤)</sup>

(١) أودى : حلك ، الإشاحة : الجد في طلب الحاجة ، البدع : الأمور الجديدة الغريبة .

(٢) الألمعي : الذكي الحديدي القلب والسان ، وقد وصفه بأنه يتظن الأمور فلا يضللها .

(٣) الرزا : الذي تصيبه الرزايا في ماله لكرمه ، والطبع : الشيم الدفنه .

(٤) العبر : الاعتبار .

يُكْبِلُونَ تَرَابًا فَوْقَ أَعْظَمِهِ  
كَمَا يُقْبَلُ فِي الْمَجْوِهِ الْمَجْرِ (١)  
لَهُ أَرْضٌ أَجْتَنَّهُ ضَرِيْخَتْهَا  
وَكَيْفَ يُدْفَنُ فِي الْمَلْحُودَةِ الْقَرَّ (٢)  
إِنَّ الْمَنَابِرَ لَا تَعْتَاضُ عَنْ مَلِكٍ  
إِلَيْهِ يَشْخُصُ فَوْقَ الْمِنْبَرِ الْبَصَرُ (٣)

وَلَا تَحُولُتِ الْخِلَافَةُ إِلَى بْنِ الْعَبَّاسِ كَانَ مِنْ بَيْنِ مَنْ قَضَوْا عَلَيْهِمْ يَزِيدَ  
أَبْنَ عَمْرَ بْنِ هَبِيرَةَ وَالِّيَّ الْعَرَاقَ لِمَرْوَانَ بْنَ مُحَمَّدَ وَقَائِدَ جَيْوَشِهِ هَنَاكَ ، وَكَانَ مِنْ  
الشَّجَاعَانِ الْأَجْوَادَ ، وَفِيهِ يَقُولُ أَبُو عَطَاءِ السَّنَدِيِّ نَادِيَا مُتَفَجِّعاً :

أَلَا إِنَّ عَيْنَاهُ لَمْ تَجُدْ يَوْمَ وَاسِطَ  
عَلَيْكَ بَهْجَارِي دَمَعَاهَا لَجَمُودٍ (٤)  
عَشِيشَةً قَامَ النَّاثَحَاتُ وَشَقَّقَتْ  
جَيْوَبَهُ بِأَيْدِي مَأْتَمٍ وَخَدُودَ (٥)  
فَإِنَّ تُمْسِيْ مَهْجُورَ الْفَنَاءِ فَرِبَّاهَا أَقَامَ بِهِ بَعْدَ الْوَفْدِ وَفَوْدَ (٦)

وَكَانَ لِلْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ أَجْوَادَهُ وَأَشْرَافَهُ وَقَوَادِهِ وَقَوَادِهِ الَّذِينَ أَجْزَلُوا الْعَطَاءَ لِلشَّعَرَاءِ ،  
وَأَجْزَلُ الشَّعَرَاءَ لَهُمْ فِي الْمَدَائِحِ وَالْمَرَائِيِّ . وَمِنْ أَهْمَّ مَنْ رَثَوْهُ وَبَكَوْهُ مَعْنَى بْنُ زَيْدَةِ  
الشَّيْبَانِيِّ وَالِّيَّ الْمَنْصُورِ عَلَى الْيَمِنِ وَلِهِ سِيرٌ وَأَقَاصِصٌ فِي الْمَدِيْرِ تَشَبَّهُ سِيرَ حَاتِمِ  
كَرِيمِ الْجَاهِلِيَّةِ . وَلَعِلَّ أَحَدَّا لَمْ يَلْغِ فِي رَثَائِهِ مَا بَلَغَهُ الْحَسِينُ بْنُ مَطِيرِ الْأَسْدِيِّ ،  
فَلَهُ فِيهِ مَرِئَةٌ رَائِعَةٌ يَقُولُ فِي تَضَاعِيفِهِ هَذِهِ الْأَيَّاتُ الْبَدِيعَةُ :

أَلِمَّا عَلَى مَعْنَى وَقُولاً لَقْبَرِهِ سَقَنْتُكَ الْفَوَادِيَ مَرَبَّعًا شَمَّ مَرَبَّعًا (٧)  
فِيَا قَبْرَ مَعْنَى أَنْتَ أَوْلُ حَفْرَةٍ مَضْجَعَمَا (٨)

(١) المَجْوِهُ : الكَعْبَةُ .

(٢) الْفَرِيْخَةُ : الْمَحْدُودُ وَسَطْهُ .

(٣) وَاسِطَ : الْبَلَدَةُ الَّتِي قَضَى فِيهَا عَلَى أَبْنَ هَبِيرَةَ ، وَهِيَ بَيْنَ الْبَصَرَةِ وَالْكُوفَةِ ، وَالْعِينِ الْمَحْمُودَ :  
الْبَخِيلَةُ بِالدَّمْعِ .

(٤) الْجَيْوَبُ : أَعْلَى الشَّيَّابِ مَا يَلِي الصَّدُورِ .

(٥) الْفَنَاءُ : وَدَهَ الدَّارُ ، وَالْوَفْدُ : الْجَمَاعَاتُ ، وَالْبَيْتُ كَتَابَةً عَنْ رِيَاسَتِهِ السَّابِقَةِ وَكَرْمَهُ .

(٦) الْفَوَادِيُّ : السَّاحَابَةُ ، وَالْمَرَبِّعُ : مَطْرُ الرَّبِيعِ .

(٧) حَفْرَتُ : حَفَرَتْ ، وَالْمَضْجَعُ : مَوْضِعُ الْأَضْطَجَاعِ .

ويا قبر معنٍ كيف واريتَ جوده  
وقد كان منه البرُّ والبحر مُترعاً<sup>(١)</sup>  
بلي قد وسعتَ الجودَ والجودُ ميئه  
ولو كان حيَا ضفتَ حتى تتصدعاً<sup>(٢)</sup>  
كما كان بعد موته فتى عيشَ في معرفة بعد موته  
قَيْ عِيشَ فِي مَعْرُوفٍ بَعْدَ مَوْتٍ<sup>(٣)</sup>

ومن وجوه العصر العباسي الذين أحدث موتهم جروحا لا ترقا في قلوب  
الشعراء منصور بن زياد، وفيه يقول التيسيني من مرثية طويلة :

عَمَتْ فَوَاضِلُهُ فَعَمَ هَلَاكُهُ  
فَالنَّاسُ فِيهِ كُلُّهُمْ مَأْجُورُ  
وَالنَّاسُ مَأْتُهُمْ عَلَيْهِ وَاحِدٌ  
فِي كُلِّ دَارٍ رَتَّهُ وَزَفِيرُ

وكان ابنه محمد على مثاله في الجود والكرم ، وكان يلقب بفتى العسكر ،  
وللشاعر فيه مرات بديعة ، ومن قول أشجع السلمى يرثيه :

أَنْعَى فَتِي الْجُودِ إِلَى الْجُودِ  
مَا مِثْلُ مَنْ أَنْعَى بِمَوْجُودٍ<sup>(٤)</sup>  
أَنْعَى فَتِي مَصَنَّ الْثَرَى بَعْدَهُ  
بَقِيَّةَ الْمَاءِ مِنَ الْعُودِ<sup>(٥)</sup>  
وَانْثَلَ الْجَدُّ بِهِ ثَلْمَةَ  
جَانِبُهَا لَيْسَ بِمَسْدُودٍ<sup>(٦)</sup>  
الْيَوْمِ تُخْشَى عَثَرَاتُ النَّدَى  
وَصُولَةُ الْبَخْلِ عَلَى الْجُودِ<sup>(٧)</sup>

ومن شغلوا الشعراء أحياه وأمواتاً يزيد بن مرتزيد ، سيف الرشيد المسنون على  
أعدائه ، وقد تغنى الشعراء بمديحه طويلا ، فلما نزل به القدر هبوا ناعين باكين

(١) المترع : المملوء.

(٢) تتصدع : تتتصدع أي تتشقق .

(٣) المربع : المكان الخشب الذي ترعى فيه الماشية .

(٤) النعى : الإخبار بالموت .

(٥) يقول إن الأرض يبيست وجفت بعد موته فامتصت ما في العود من بقية الماء . وهو كناية عن إيجاد الأرض بعد موته .

(٦) انثلم : اتصدع .

(٧) العثرات : الزلات ، والصولة : الغلة .

وفيه يقول التيمي :

أَحَقُّ أَنْهُ أَوْدَى يَزِيدُ تَبَيَّنَ أَيْهَا النَّاعِي الْمُشِيدُ<sup>(١)</sup>  
أَتَدْرِي مِنْ نَعِيَّتَ وَكِيفَ فَاهَتْ<sup>(٢)</sup>  
فَهَا لِلأَرْضِ وَيَمْلَكَ لَا تَمِيدُ<sup>(٣)</sup>  
تَأْمَلُ هَلْ تَرَى إِلَسْلَامٌ مَالَتْ  
أَمَا وَاللَّهِ لَا تَنْفَكُ عَيْنِي عَلَيْهِ بَدْعَهَا أَبْدَا تَجْبُودُ

وكل بيت من المرثية يفيض بالدموع والأسى ، وهي من أجود المراثي في الشعر العربي قديماً وحديثاً . ومن الشعراء الذين برزوا في مراثي الولادة والقواعد من فاضوا على الناس بيعور نوالهم وغمرها بها الأراميل والبياتي شاعر مشهور يدور اسمه على كل لسان ، وهو أبو تمام ، ومن قوله في إحدى مراثيه وهي في خالد بن يزيد

بن مزيد :

أَشِيبَانُ لَا ذَاكَ الْمَلَلَ بِطَالِعٍ عَلَيْنَا وَلَا ذَاكَ النَّهَامَ بِعَائِدٍ<sup>(٤)</sup>  
وَلَا جَانِبُ الدُّنْيَا بِسَهْلٍ وَلَا الضَّحْجَى بِطَلْقٍ وَلَا مَاهَ الْحَيَاةِ بِبَارِدٍ<sup>(٥)</sup>  
فِيهَا وَخْشَةَ الدُّنْيَا وَكَانَتْ أَنِيسَةٌ وَرُوحَدَةٌ مَنْ فِيهَا بِعَصْرٍ وَاحِدٍ

وكان من الحوادث الدامية في عصره أن قتل في بعض حروب العباسيين بطل من أشهر أبطالهم ، وهو محمد بن حُسْيَنُ الطوسي الذي طلما دوخ الجيوش ، وكان آية في الجبود والكرم ، فنوه به الشعراء وأطنبوا في الثناء ، فلما قتل في ساحة الحرب أقاموا له المأتم ، ومن أروع ما قيل فيه مرثية لأبي تمام ، نقرأ

(١) المشيد : الرافع لصوته .

(٢) الصعيد : الثرى .

(٣) تميد : تتحرّك وتهتز .

(٤) شيبان : قبيلة الميت .

(٥) طلق : مشرق .

فيها هذه الأبيات :

تُوقّيتِيَّةُ الْأَمَالُ بَعْدَ مُحَمَّدٍ  
 قَتَّى كَلَا فَاضَتْ عَيْنُ قَبِيلَةِ  
 فَتَى دَهْرَهُ شَطَرَانِ فِيهَا يَنْوُبُهُ  
 فَتَى مَاتَ بَيْنَ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ مِيَتَةً  
 وَمَا مَاتَ حَتَّى مَاتَ مَضْرِبُ سِيفِهِ  
 تَرَدَّى ثِيَابُ الْمَوْتِ حُمْرًا فَاَدَجَى  
 وَأَصْبَحَ فِي شُغْلٍ عَنِ السَّفَرِ السَّفَرِ<sup>(١)</sup>  
 دَمًا خَحَّكَتْ عَنْهُ الْأَحَادِيثُ وَالَّذِي كَرَّ<sup>(٢)</sup>  
 فِي بَأْسِهِ شَطَرٌ وَفِي جُودِهِ شَطَرٌ<sup>(٣)</sup>  
 تَقْوِيمُ مَقَامِ النَّصْرِ إِذْ فَاتَهُ النَّصْرُ<sup>(٤)</sup>  
 هَمَّا الْلَّيْلُ إِلَاؤْهِيَّ مِنْ سُندُسٍ حُسْنَرٌ<sup>(٥)</sup>

ويكاد الإنسان يظن أنه لم يمت شريف ولا صاحب مأثرة إلا نعاه الشعراء وخلدوا ذكره ، ودواوينهم ترخر بتراثهم لا في الشرق وبغداد فحسب ، بل في كل مكان حتى أقصى العالم الإسلامي في الغرب ، ونقصد الأندلس ، فإن شعراءها جَلَّلُوا دواوينهم وأشعارهم بسواد الحزن على من سبقوهم إلى دار الخلود . ونستطيع أن ندخل في هذا الباب عندهم مراثهم في ملوك الطوائف وهم لم يكونوا ملوكاً حقيقيين ، إنما كانوا أبناء وأعيانًا في بلدانهم ، واحتارتهم هذه البلدان ليدبروا أمرها وقد اشتهر ابن باجة فيلسوف الأندلس وإمامها في الألحان بمراث بكى بها أبو بكر بن تيفلانيون صاحب سرقةسطة ، وقد غنى بها في الألحان مبكية ، من ذلك قوله :

سَلَامٌ وَإِلَمَامٌ وَرَوْحٌ وَرَحْمَةٌ  
 عَلَى الْجَسَدِ النَّانِي الَّذِي لَا أَزُورُهُ  
 أَحَقًا أَبَا بَكْرٍ تَقْضِي فَهَا يُرَىٰ  
 تَرَدُّ جَمَاهِيرَ الْوَفُودِ سُتُورَهُ

(١) السفر : المسافرون .

(٢) يزيد الشاعر بالقبائل التي تقپيس عيونها دما القبائل التي هزمها في الحرب .

(٣) البأس : الشجاعة .

(٤) مضرب السيف : حده ، واعتلت : اعتذر وتشاقل ، والقنا : الرماح وتنعمت بالسمرة كما انتسبت السيف بالبيان .

(٥) ترد : ليس ، ودجي الليل : أظلم ، والسنداين : الحرير .

لئن أَنْسَتْ تلّك الْقُبُورُ بِقَبْرِهِ لَقَدْ أَوْحَشْتَ أَمْسَارَهُ وَقُصُورَهُ  
وَقُولَهُ :

يَا صَدَّىٰ بِالشَّغْرِ جَاَوِرَهُ  
رِمَمٌ بُورِكَنْ مِنْ رِمَمٍ <sup>(١)</sup>  
صَبَحَتْكَ الْخَيْلُ غَازِيَّةً  
فَأَثَارَتْكَ فَلَمْ تَرِمْ <sup>(٢)</sup>  
قَدْ طَوَى ذَا الدَّهْرِ بِزَّتَهُ  
عَنْكَ فَالْبَسْ بِزَّةَ الْكَرْمِ <sup>(٣)</sup>

وإذا كان أبو تمام وغيره من الشعراء يكتبوا قواد العباسين الذين استشهدوا في الحروب فإن الأندلسين كانوا في حرب مستمرة مع الأسبان الشماليين ، وكم من سيد شريف وجاد كريم ضحيّي بنفسه في هذه الحرب وجاد بها راضيا يطلب ما عند الله من الثواب والأجر . وتغنى الأندلسون بأبطالهم كما تغنى العباسيون بشجاعتهم ، وتمثل في أذهاننا توا حروب الصليبيين في الشرق ، ومن ماتوا في تلك الحروب فداء أوطانهم ، ومن دوخوهم مدافعين عن حوزة الإسلام . ولعل الشرق لم يعرف أميرين عظيمين في هذه المعارك كما عرف نور الدين في الشام وصلاح الدين في مصر ولا توفّ أوطما نعاه الشعراء لحسن سيرته ولا قدم من بطولة سارت بها الركبان ، وفيه يقول العmad الأصفهاني :

يَا مَلَكَا أَيَامَهُ لَمْ تَرَزَّ  
لِنَضَلهِ فَاضْلَهَ فَاخْرَهَ  
غَاضَتْ بِمَحَارِ الْجُودِ مَذْغَيْتَ  
أَنْمَلَكَ الْفَائِضَةَ الزَّانِرَهَ  
مَلَكَتْ دُنْيَاكَ وَخَلَقَتْهَا  
وَسَرَتْ حَقَ تَمْلِكَ الْآخِرَهَ

وتحل العبء من بعده صلاح الدين الأيوبي صاحب مصر ومؤسس الدولة الأيوبيّة بها ، وأكبر من خَضَدَ شوكة الصليبيين ، بل لقد روى بأمواجههم إلى

(١) الصدّى : جسد الشخص بعد موته .

(٢) لم ترم : لم تبح مكانك من رمت المكان أي أقمت به .

(٣) الزيارة : الشوب

البحر مستخلصاً منهم بيت المقدس وغيره من بلدان الشام ، ولما نزل به قضاءُ ربِّه  
رثاه العمالء بقصيدة طويلة بلغت مائتين واثنين وثلاثين بيتاً وفيها يقول :

ملكٌ عن الإسلام كان محاميًّا      أبداً إذا ما لامته محاته  
لما خلتْ من بدره داراته<sup>(١)</sup>      قد أظلمتْ مذ غاب عنها دوره  
في ذكره من ذكره آياته<sup>(٢)</sup>      لو كان في عصر النبي لاذرت  
فعلى صلاح الدين يوسف داعمًا      رضوان رب العرش بل صلواته

وعلى هذه الشاكلة كان شعراً لا يتركون شريفاً ولا عظيماً يوماً وتذهب  
ذكرياه ، بل سجلوا دائمًا مناقب كل سيد نبيل ، وكل بطل جرى عليه . وما دواوين  
شعراً إلا سجلات حافلة بن لمعاني عصورهم ، ثم اختفوا وراء ظلمات الموت .  
ونمضي بعد صلاح الدين في ديارنا المصرية ، ويدور بنا الزمن دورات ،  
حتى نصل إلى العصر الحديث بين أنات الشعراء وصياغهم على من يتوفون من  
سلطان المماليك وعليه القوم ورؤسائهم وأجوادهم . وما نزال حتى نلتقي بحافظ  
وشوق فتجد لمرأى السرة والأعيان مكاناً بارزاً في ديوانيهما ، ولعل حافظاً يتقدم  
شوق في هذا الجانب ، إذ دفعته رقة حاله للاتصال بطاقة من العالية المتأذين  
في عصره ، وأغدقوا عليه من برّهم وفضلهم فكان إذا نزل الموت بساحة واحد منهم  
ذهب ينشج عليه وينوح بعاطفة حزينة صادقة ، من ذلك قوله في سليمان أباطة :

أودي سليمان فأودي بعده حسن الوفاء وبهجته التلبية  
لا تتحملوه على الرقاب فقد كفى ما حملتْ من همة وعطاء  
وزدوا على نهر المدامع نعشة يسرى به للروضة ، الفيحة  
تالله لو علمتْ به أعاده مذ لامته لأورقت للرأي  
خلق كضوء البدر أو كالروض أو كالمطر أو كالماء  
ولشوق هو الآخر مراث في سراة عصره ، وكانت له مقدرة بديعة في سلوين  
الرثاء بالحكم وسنعرض لذلك في حديثنا عن العزاء .

(١) الدارات : جمع دارة وهي المالة الدائرة حول القمر .

## تأبين العلماء والأدباء

طبيعي أن يكون للعلماء مكانهم في التأبين والرثاء ، إذ كانوا يتصلون بحياة الشعراء اتصالاً مباشراً إما من الوجهة الثقافية العامة ، وإما من الوجهة الدينية ، وقلما مات صاحب مذهب في الدين أو صاحب أثر بارز في تأليف الشريعة إلا نعاه الشعراء وتحذلوا عن فضله وواسع علمه وقيمة ما ترك من ورائه . ومن بكاه الشعراء الأوزاعي فقيه الشام ، وإمام أهله لعصر بي أمية ، وفيه يقول بعض الشاميين :

جاد الحَيَا<sup>(١)</sup> بالشام كُلَّ عَشِيهِ  
قِبْرُهُ تضَعَّنَ فِيهِ طُود شَرِيعَةِ  
سَقِيَاهُ مِنْ عَالمٍ نَفَاعَ  
عَرَضَتْ لَهُ الدُّنيَا فَأَعْرَضَ مَقْلَعَهُ  
عَنْهَا بِزَهْدٍ أَيْمَانَ إِقْلَاعِ

وغير الأوزاعي من الفقهاء الأول كان يبكيه الشعراء ، ويؤبنونه معبرين عن إعجابهم به وبسلوكه العلمي والخلقي ، ولبعضهم في الإمام مالك وكتابه «الموطأ» :

إِمَامٌ مُوَطَّاهُ الذِّي طُبِّقَتْ بِهِ  
أَفَالِيمُ فِي الدُّنْيَا فَسَاحَ وَآفَاقَ  
لَهُ سَنَدٌ عَلَىٰ صَحِيفَةٍ وَهَيْبَةٍ  
فَالسَّكَلُ مِنْهُ حِينَ يَرُوِيَهُ إِطْرَاقُ

وهو يشير إلى ما في كتاب الموطأ من أحاديث صحيحة عالية السنّة ، مؤثث بها ، إذ كان مالك ديننا ورعا ، متحرجا فيها يرويه من أحاديث ، فلم يترو إلا الصحيح . ويقول آخر في الشافعي ( وهو أبو عبد الله محمد بن إدريس ) :

(١) الحيا : الغيث .

ألم تر آثار ابنِ إدريسَ بعده دلائلُها في المشكّلات لواضعُ  
إذا المفظّمات المشكّلات تشابهتْ  
سما منه نورٌ في دُجاهنَ لامع  
وخصَ بلبِ الْكَهْل مذْ هو يافعُ  
تسرّبَلَ بالتفوي ولیدا وناشنا

ويطول بنا القول لو ذهبنا نحصى ما قيل في الفقهاء وعلماء الشريعة  
الإسلامية على مر العصور ، فقد كانوا أساندَة المسلمين الروحين ، وكانوا  
يتلقون عنهم من المدى في دينهم ما يضيئ لهم جوانب حياتهم ، فلا غرو أن  
وقفوا عليهم كثيراً من مراثيمهم .

ولعل علماء اللغة هم أكثر العلماء اتصالاً بالشعر والشعراء ، فقد كانوا  
يؤذبونهم ، وعن طريقهم حذقوا فهم وقد ذهبوا ينزعونهم في شعرهم ، ونجد هذا  
المعنى في كل مكان . ومن أكثر الشعراء نعيه منهم عبد الملك بن سراج الحمي علم  
اللسان بجزيرة الأندلس ، فقد عقد ابن سام في كتابه الذخيرة فصلاً طويلاً لمراطيه ،  
ومما قيل فيه :

كم مُصنَّبٌ في النحو راضٌ بِجَاهَهُ حتى غَدَّا والصعبُ منه ذَلَولُ  
أدَنَى إلى الأفهام نائِي عَلَيْهَا حتى تساوى عالمٌ وجهولٌ  
طَبٌ بِأذْوَاءِ الْكَلَامِ ملْقَنٌ سَهْمٌ على عَوْرَاتِهِ مدلولٌ<sup>(١)</sup>

ومن مراطي اللغوين والتحويين البديعة مرثية الشرف الحصني لابن مالك  
صاحب «الألفية» المشهورة ، وفيها يقول :

يا شتاتَ الأسماءِ والأفعالِ بعد موتِ ابنِ مالكِ المفضلِ  
وانحرافَ الحروفِ من بعد ضَبْطِهِ منه في الانفصالِ والاتصالِ  
مصدراً كان للعلومِ بأذْنِهِ شَهَةٌ ومحالٌ  
عدِمَ النحوِ والتعطُّفِ والتوكِيدُ مستبدلاً من الأبدالِ

(١) طب : طبيب حاذق .

## أدغموه في التُّربَ من غير مثِلٍ سالماً من تغيرِ الإنتقالِ.

وواضح أن الحصني تصنّع المصطلحات النحو، فتحشد لها في مفهّمها ، حتى يلام بين الشعر وصنعة ابن مالك وقد وقق في هذا التّصنيع ، فلم تسقط الآيات ولا الأفكار منه ، واستمر طويلاً على هذا النحو الطريف .

ومن بين العلماء الذين أبغضهم الشّعراء العلماء بالفلسفة ، وقد وجدوا فيهم مادة لا تنفذ من أحوال الدنيا ، وخاصة أن أكثرهم كان يتعاطى الطب ، ويداوي الناس من الأمراض ، ولم يستطع أن يداوى نفسه ولا أن يمنع عنها نزول الموت ، فذكروا فضلهم وعلّمهم ، ثم وقفوا عند صنعتهم وأنّها لم تغنم من أمرهم شيئاً فن ذلك قول يحيى المنجم في رثاء ثابت بن قرّة :

كَعِيْنَا عَلَوْمَ الْفَقَسْسَيَّاتِ كَلَهَا خَبَانُورُهَا إِذْ قَيْلَ قَدْمَاتِ ثَابَتُ  
وَأَصْبَحَ أَهْلُوهَا حِيَارَى لِقَدْهِ وزَالَ بِهِ رُكْنُ مِنَ الْعِلْمِ ثَابَتُ  
وَلَا أَتَاهُ الْمَوْتُ لَمْ يَفْنِ طَبِيهِ (١) وَلَا نَاطِقٌ مِمَّا حَوَاهُ وَصَامَتُ

ويقول آخر في ابن سينا :

رَأَيْتُ ابْنَ سِينَا يَدَاوِي الرِّجَالَ وَبِالْحَبْسِ ماتَ أَخْسَسَ الْمَهَاتِ  
فَلَمْ يَشْفِ مَا نَالَهُ بِالشَّفَا وَلَمْ يَنْجُ مِنْ مَوْتِهِ بِالنَّجَاهَ

والشاعر يريد بالحبس انحباس بطنه من قرحة المعدة التي مات بها ، والشفاء والنجاة كتابان معروفان لابن سينا .

وإذا كان أسلافنا قدروا معاصرיהם من العلماء في مختلف الفروع والفنون فإن شعراءنا أيضاً وفروا علماءنا حقهم من التكريم والتجليل بعد وفاتهم ، فقدموا توف عالم نابه إلا أشادوا به ، وتحذّلوا عن مناقبه ، وما أسدى لوطنه وأبنائه ؟ وما قدم لأمته من خدمات ، واستمع إلى شوق يقول في أبي هيسيف أحد رجال القانون :

( ١ ) المال الناطق : النواب ، والعصامت : المثار والضياع والذهب والفضة .

وابعثه للوطن الحزين عزاء  
كالأمهات وتندب الأبناء<sup>(١)</sup>  
ثُكْلُ الْمَالِكِ فَقَدُّهَا الْمُلَمَّا  
جَزَّ الْكِتَابِ قَدْ قَدْنَ لَوَاء<sup>(٢)</sup>  
لِلْمَوْتِ يَنْظِمُ حُكْمَهَا الْأَحْيَا  
وَالْيَوْمُ عَالِجُ لِلْسَّاءِ قَضَاهُ  
أَجْعَلُ رَثَاءَكَ لِلرِّجَالِ جَرَاءَهُ  
إِنَّ الدِّيَارَ تَرِيقٌ مَاءَ شُتُونُهَا  
ثُكْلُ الرِّجَالِ مِنَ الْبَنِينَ وَإِنَّمَا  
يَجِزُّ عَنَّ الْعِلْمَ الْكَبِيرِ إِذَا هَوَى  
عَلَمُ الشَّرِيعَةِ أَدْرَكَتْهُ شَرِيعَةُ  
عَلَى قَضَاءِ الْأَرْضِ عِلْمٌ مُحَصَّلٌ

فهو يشيعه لا بحزنه وحده ، بل أيضاً بحزن وطنه عليه ، ومصيبة فيه ،  
ونحسارة أصدقائه ومواطئه . ومن بين من رثاهم عنان غالب ، وكان عالماً بالنبات  
وطبيباً ، فرثى العلمين فيه ، وهو يستهل مريئته بقوله :

ضَجَّتْ لَمْرَاعٍ غَالِبٍ  
فِي الْأَرْضِ مَلْكَةُ النَّبَاتِ  
فِي مَائِمَّةٍ تَلْقَى الطَّبِيعَةُ مَةٌ فِيهِ بَيْنَ النَّادِيَاتِ  
وَالْوَهْرُ فِي أَكْامِهِ يَبْكِي بَدْمَعِ الْفَادِيَاتِ<sup>(٣)</sup>  
أَمَا مَصَابُ الطَّبِيعَةِ فَهُوَ فَسَلْ بِهِ مَلَأَ الْأَسَاءَ<sup>(٤)</sup>

وكان شوق يعرف كيف يستخرج في مراثيه المعانى من الموضوع الذى  
ينظم فيه ، وقد أطال فى بكاء الطبيعة وأزهارها على غالب ، ولا قطينا هذه  
الأبيات الأربع من أبيات كثيرة . وله في رثاء طبيب :

جَمِحَتْ جَرَاحُ الْمُغَزِّينَ وَأَعْضَلَتْ  
أَدْوَاهُمْ وَتَغَيَّبَ الشَّافُونَا<sup>(٥)</sup>

(١) ماء الشتوبن : الندموع .

(٢) العلم : المشهور ، وأصله الجبل .

(٣) الناديات : السحب .

(٤) الملا : شيخ النادى ، والأساء : الأطباء .

(٥) أعضلت : استمتصت .

مات الجواد بطّه وبأجره ولربما بذل الدواء معيناً  
وتَجْسُّس راحتُه العليل وتأرة تكسو الفقير وتطعم المسكينا

وللمعلمين حظهم في مراثينا الحديثة ، وخاصة عند شعراء لبنان والمهجر ،  
ولننسب عريضة مرتيبة بدعة يُؤثِّرُ فيها عبد الله البستاني مثنياً على أخلاقه وصفاته  
وكَدَّه في سهل رقّ بلاده وبهضتها العلمية ، وما جاء فيها :

إنه عالمٌ — تقول — قضى الأَيَّامَ ما بين طرسٍ ودواتهِ  
كان يَقْرِئُ الجياعَ عِلْمًا وفهْمًا  
وسواه يَقْرِئُهُمْ من فُتَاتِهِ  
هَذِبَ الناشين فِي أُمُّقٍ ما عرفَتْ حَقَّ قدرِهِ فِي حَيَاتِهِ  
فَلَتَقْدُسْ ذِكْرَاه فِي الْقَلْبِ فَالذَّكْرُ رَى بِقَلْبِ الْحَزِينِ مِنْ صَلواتِهِ

ولعل مصر والبلاد العربية لم تبك عالماً في عصرنا كما بكَت الشیخ محمد  
عبدِه مفتی الديار المصرية إذ كان مصلحاً كبيراً ، وكانت له معارك مع رجال  
الدين المترتبين ، كما كانت له معارك وطنية وسياسية ، وكان في كل ما يتوجه  
إليه يفكِّر في بلاده وفي دينه وفي الأزهر والنهوض به . وتصادف أن رعى حافظ  
إبراهيم وأن كان سبباً في جذب الأنظار إليه ، فلما توفَّ رَدَ إِلَيْهِ صنيعه مراثيَّ  
ملائعة ، وله في إحدى مراثيه :

سلامٌ عَلَى الإِسْلَامِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ سلامٌ عَلَى .. أَيَّامِ التَّضَرُّراتِ  
عَلَى الدِّينِ وَالدُّنْيَا ، عَلَى الْبَرِّ وَالْتَّقْوَى ، عَلَى الْحَسَنَاتِ

واستمر يتحدث عن إصلاحاته ، وذبه عن الإسلام ورده على مطاعن  
أعدائه ، وما سطر في التفسير من آراء وأحكام ، حتى قال :

بَكَى الشَّرْقُ فَأَرْتَجَتْ لِهِ الْأَرْضُ رَجَةً وضاقتْ عِيُونُ الْكَوْنِ بِالْعِبَرَاتِ  
فِي الْهَنْدِ مَحْزُونٌ وَفِي الصَّيْنِ جَازِعٌ وَفِي مِضَارِ بَالِكِ دَائِمٌ الْحَسَرَاتِ

وفي الشام مفجوعٌ وفي الفُرس نادبٌ وفي تونسِ ما شئتَ من زَفاتِ  
بِكَ عَالَمُ الْإِسْلَامِ عَالَمَ عَصْرِهِ سِرَاجُ الْدِيَاجِيِّ هَادِمُ الشُّهَابَاتِ  
وهي مرثية مليئة باللوحة الشديدة ، إذ كان يبكي فيه ناصره ، كما كان يبكي  
فيه أهدافه الإصلاحية الكثيرة للن هو بوطنه .

وإذا كان العلماء قد استأثروا بكثير من مراثي شعرائنا في القديم والحديث  
فإن الأدباء استأثروا من ذلك بالحظ الأوفر ، سواءً أكانوا كتاباً أم كانوا شعراء .  
والشريف الرضي مرثيان مشهورتان في أكبر كاتبين في عصره ، وهما أبو إسحاق  
الصابي شيخ الكتاب في بغداد والصاحب بن عباد وزير البوئيسيين وخير كتابهم ،  
ومن قول الشريف في أولهما :

أعلمتَ مَنْ حملوا على الأَعْوَادِ أَرَأَيْتَ كَيْفَ خَبَأَ ضياءَ النادي ؟  
جَبَلٌ هُوَ لَوْخَرَ فِي الْبَحْرِ اغْتَلَى مِنْ وَقْعَهُ مُتَابِعَ الْإِزَبَادِ  
مَا كُنْتَ أَعْلَمُ قَبْلَ دُفْنِكَ فِي التَّرَى أَنَّ الرَّى يَمْلُو عَلَى الْأَطْوَادِ

ويقول في الصاحب من مرثية طويلة :

أَكَذَا الْمَنْوَنَ يَقْطُلُ<sup>(١)</sup> الْأَبْطَالِا  
جَبَلٌ تَسَنَّمَتِ الْبَلَادُ هَضَابَهُ  
يَا طَالِبَا مِنْ ذَا الزَّمَانِ شَبِيهَهُ

وكتير هم الكتاب الذين دبعوا الشعراء فيهم مراثي بديعة ، في الشرق والغرب  
وفـ كل مكان نجد الشعراء يبكونهم . ومن طريف ما جاء عن الأندلسيين من  
ذلك رثاء ابن بُرْد الأصغر لأبي عامر بن شهيد صاحب رسالة التوابع والزوابع ،  
وهي رحلة فيها وراء الطبيعة لشاعر جاس خلال وادي الجين ، والتي فيه بشياطين  
الشعراء ، وحاورهم وحدتهم كما حدثـهـ . ومن قول ابن بُرْد فيه :

(١) يقطـلـ : يصرـعـ .

لَا يَأْتِي خَصْلَةٌ تُبَكِّيكَ عَيْنِي  
وَمَا لِي بِالْحِسَابِ لَهَا يَدَانِي  
أَلِلَّهِمَّ الْمُوْطَّقَ بِالثَّرِيَا  
أَمْ الشَّيْءَ الْمَذَبَّةُ الْحَسَانُ  
أَمْ الْقَلْمَرُ الَّذِي قَدْ كَانَ يَجْنِي  
مِنَ الْقِرْطَاسِ نُوَارَ الْبَيَانِ

ولكتاب العرب المحدثين نصيبيهم من هذه المراثي ، وخاصية من اشتغلوا منهم بالصحافة ، وساهموا في حياتنا الأدبية ، ويكفي أن نرجع إلى ديواني حافظ وشوق ، فسنجد عندهما مراثي لكثيرين من الكتاب المعاصرين أمثال جورجي زيدان والشيخ علي يوسف صاحب المؤيد ويعقوب صروف أحد صاحبي مجلة المقططف وصحيفة المقطم ، وحمد المويلحي الذي كان يحرر مع أبيه إبراهيم صحيفة مصباح الشرق ، والذى ألف حديث عيسى بن هشام وصور فيه حياتنا المصرية في أواخر القرن الماضي ناقداً ما اقتبسناه من أوروبا من عادات وأخلاق ، وجرياً على ذلك في شكل قصصي يعتمد على الحوار ورسم الشخصيات ، وإلى هذا الكتاب يشير حافظ في تأبينه له إذ يقول :

لَوْ شَهَدْتُمْ (مُحَمَّداً) وَهُوَ يُمْلِي  
آئِ (عِيسَى) وَمَعْجَزَاتِ الْكِتَابِ<sup>(١)</sup>  
وَقَفْتُ حَوْلَهُ صَفَوْفُ الْمَعَانِي  
وَصَفَوْفُ الْأَلْفَاظِ مِنْ كُلِّ بَابِ  
لَهْلَمْتُ بِأَنِّي عَهَدَ إِنْ يَجْنِي  
عَوْدَ الشَّرْقَ بَعْدَ طَوْلِ احْتِجَابِ<sup>(٢)</sup>  
وَيَقُولُ شَوْقٌ :

فِي يَدِ النَّشَاءِ مِنْ بَيَانِ الْمُوْيلِحِي  
مِثْلُ يَنْفَعُ الشَّبَابَ اتِّبَاعُهُ  
صُورُّ مِنْ حَقْيَقَةِ وَخِيَالٍ هِيَ إِحْسَانٌ فَكِيرٌ وَابْتِدَاعٌ  
وَإِذَا تَرَكْنَا الْكِتَابَ إِلَى الشُّعَرَاءِ وَجَدْنَاهُمْ يَحْزُنُونَ عَلَى زَمَلَائِهِمُ الَّذِينَ يَسْبِقُونَهُم  
إِلَى الْمَوْتِ حَزَنًا يَفْضُى بِهِمْ إِلَى التَّنْفِيسِ عَنْ لَوْعَتِهِمُ الْأَبِيَّاتِ وَالْمَقْطُوعَاتِ أَحْيَا نَا

(١) وَرَى حَافِظٌ فِي كَلْمَهِ مُحَمَّدٍ وَعِيسَى ، وَهُوَ يَقْصِدُ مُحَمَّدَ الْمُوْيلِحِي وَكِتَابَهُ عِيسَى بْنَ هَشَامٍ .

(٢) إِنْ بَحْرٌ هُوَ عَمْرُو بْنُ بَحْرٍ الْمَاحَظُ أَشْهَرُ كِتَابِ الْعَصْرِ الْعَيَّاصِي .

وبالقصائد والمراثي المطولة أحياناً أخرى . وهذا التعاطف والتراحم بينهم من قديم ، وحتى بين من كانوا يتاجرون فإن الفرزدق كان يتعارك مع جرير ، وطما نفائض مشهورة ، ولما ألم بالفرزدق طائف المنون بكاه جرير في أشعار مختلفة ، منها قوله :

فُجِّعْنَا بِحَمَالِ الْدِيَاتِ ابْنَ غَالِبٍ  
وَحَمَى تَمِيمٍ عِرْضِهَا وَالْمُرَاجِمِ  
بِكِينَاكَ حِدْثَانَ الْفَرَاقِ وَإِنَّمَا  
شَجَوْا لِلأُمُورِ الْعَظَامِ

ومن يرجع إلى كتب الأدب والتراجم في العصر العباسي يجد الشعراء مكتفين على تأمين زملائهم الراحلين ، وهذا طبيعي بحكم الزماله وما نشأ بينهم من صحبة وصداقة ، وهي صداقة روحية ، وكثيراً ما تكون صداقة تلمذة ، فتجتماع الأبوة الفنية مع الصداقة الروحية ، أو تكون الأخوة الأدبية التي تربط الشاعرين برباط أقوى من رباط الدم ، ومن بكاهم إخوانهم وأغولوا في بكائهم أبو تمام ، وفيه يقول الحسن بن وهب :

فُحِّصَ الْقَرِيبُ بِخَاتَمِ الشُّعَرَاءِ  
وَغَدَيرٌ رَوْضَتَهُ حَبِيبُ الطَّائِي  
مَا تَأْتِي مَعَا فَتَبَجاوَرَا فِي حُفْرَةٍ  
وَكَذَلِكَ كَانَا قَبْلَ فِي الْأَحْيَاءِ

ويقول على بن الجهم :

غَاضَتْ بِدَائِعِ فِطْنَةِ الْأَوَاهِمِ  
وَعَدَتْ عَلَيْهَا نَكَبَةِ الْأَيَّامِ  
وَغَدَا الْقَرِيبُ صَنِيلَ شَخْصِيَّا كِيَا  
يَشْكُو رَزِيْتَهُ إِلَى الْأَقْلَامِ  
وَتَأْوَهَتْ غَرَرُ التَّوَافِ بَعْدَهُ  
وَرَمَى الزَّمَانُ صَحِيْحَهَا بِسَقَامِ  
أَوْدَى مُتَقْفَهَا وَرَأَيْضُ صَعْبَهَا  
وَغَدَيرُ رَوْضَتَهَا أَبُو تَمَّامِ  
وَلَا قَتْلُ الْمُتَنبِّي أَقَامَ الشُّعَرَاءِ عَلَيْهِ الْمَآتمِ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَمِنْ رَثَاءِ فَأَحْسَنَ فِي

( ١ ) حال الديات : الذي يحمل عن الناس ما يطلب منهم من الديات والمغارم ، والتراجم .  
المتأصل والمداعع .

رثائه على لِمَحَازِه أبو القاسم مظفر بن على الطُّبِّسي ، إذ يقول :

لارَعَى الله سِرْبَ هذا الزَّمَانِ إِذْ دَهَانَا فِي مُثْلِ ذَكَرِ اللِّسَانِ  
ما رأَى النَّاسُ ثَانِيَ المُنْتَهِيِّ أَئِ ثَانِيَ يُرَى لِبَكْرِ الزَّمَانِ  
كَانَ مِنْ نَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ فِي جَيْشِ شِرِّ وَفِي كِبِيرَاتِ ذِي سُلْطَانِ  
هُوَ فِي شِعْرِهِ نَبِيٌّ وَلَكِنْ ظَهَرَتْ مَعْجِزَاتُهُ فِي الْمُسَانِيِّ

وكان أبو العلاء كثير التلاميذ، فلما مات أنسد على قبره أربعة وثمانون  
شاعراً مراثي يبكونه فيها ، ويكون الشعر والعلم والثقافة الواسعة ، وفيه يقول  
على بن الهمام من مرثية طويلة :

إِنْ كُنْتَ لَمْ تُرِقِ الدَّمَاءَ زَهَادَةً فَلَقَدْ أَرْقَتَ الْيَوْمَ مِنْ جَهْنَمِ دِمَاهُ  
سَيِّرَتَ ذَكْرًا فِي الْبَلَادِ كَائِنَ مِسْكٌ مَسَامِعَهَا يَضْمَنُخُ أَوْفَانِهِ  
وَتَرَى الْحَبِيجَ إِذَا مَا أَرَادُوا لِيَلَةً ذَكْرَكَ أَخْرَجَ فَدِيَّةً مِنْ أَخْرَمَاهُ  
وهو يشير في البيت الأول إلى تحريره على نفسه الحيوان ، وأنه لم يرق دمه  
ليأكله ، ويقول في البيت الأخير إن ذكره طيب ، والطيب لا يحل للمحرم  
ال الحاج ، فإذا ذكره يجب عليه أن يؤدي الفدية .

وإذا كان شعراً في العصور الماضية قد أدى بعضهم لبعض حقوقهم من  
التأنيين والبكاء فإنهم في عصرنا الحديث يستبقون إلى هذا الواجب الأدبي استباقاً ،  
فكل منهم يظهر وفاءه بزميله وأن كارثته فيه فوق أن تُسْخَدَ أو توصف ، بل إنها  
كارثة الشعر والفن ، وأيضاً فإنها كارثة الوطن الذي أُصْبِبَ به وخرج يشيعه  
كسير القلب والقواعد . ولعل أهم شاعر لبس له مصر ثياب السواد في مفتتح  
قرننا هو البارودي أبو شعرنا الحديث ، الذي نفح في روحه وبعثه من موته  
ورقاده ، وفيه يقول حافظ إبراهيم نادباً مشيداً بأمجاده الفنية :

لِبَيْكَ يَا شَاعِرًا ضَنَّ الزَّمَانِ بِهِ عَلَى النَّهَى وَالْقَوْافِي وَالْأَنَاشِيدِ<sup>(١)</sup>

(١) النهى : المقول .

تُجْرِي السلاسَةُ فِي أَثْنَاءِ مِنْطَقَهِ  
تَحْتَ الْفَصَاحَهِ جَرَىَ الْمَاءُ فِي الْعُودِ  
لَوْ حَنَطْوَكَ بِشَغْرِ أَنْتَ فَالْأَهُ  
غَنِيتَ عَنْ نَفَحَاتِ الْمِسْكِ وَالْعُودِ

ثُمَّ يَتَحَدَّثُ عَنْ قَصَائِدِهِ فِي مدِيْحِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَنْهَا خَيْرٌ  
زَادَ لَهُ يَوْمُ الْحِسَابِ ، ثُمَّ يَعْرِضُ لِمَنْاصِبِهِ فِي الثُّورَةِ الْعَرَابِيَّةِ وَقَبْلَهَا ، كَمَا يَعْرِضُ  
لِحَرْوَبِهِ فِي جِيُوشِ الْتُّرْكِ ، وَيَقُولُ :

لَوْ أَنْصَفُوا أَوْ دَعُوهُ جَوْفَ اَلْؤُلُؤِ  
مِنْ كَنْزِ حَكْمَتِهِ لَا جَوْفَ أَخْدُودٍ<sup>(١)</sup>  
وَكَفْنُوهُ بِدَرَجٍ مِنْ صَحَافَهِ  
أَوْ وَاضْجَعُوهُ مِنْ قَيْصِ الْصَّبِعِ مَقْدُودٍ<sup>(٢)</sup>

وَمَا يَرَالْ حَافِظٌ يُشَيدُ بِشِعْرِهِ وَفَرَائِدِهِ الْحَسَانِ الَّتِي بَلَغَتْ مِنَ الْحِمَالِ الْفَنِيِّ  
أَرْوَاعَ مَظَاهِرِهِ . وَكَمَا بَكَى حَافِظُ الْبَارُودِيِّ وَأَبْسَنَهُ بَكَى إِسْمَاعِيلُ صَبَرِيُّ هُوَ الْآخَرُ  
وَأَبْنَهُ تَأْبِينَا طَرِيفَا ، وَفِيهِ يَقُولُ :

اَوَّلَ يَوْمٍ لِمَهْدِ الرَّبِيعِ  
تَجْفَ الْرِيَاضُ وَيَذْوَى الزَّهْرَ<sup>(٣)</sup>  
وَيَذْبَلُ زَهْرُ الْقَرِيبِ الْتَّرَّى  
وَيَقْفِرُ رُوضُ الْقَوَافِ الْفَرَّارَ  
لِيَهْدِي عَمَانُ  
أَصِيبَ وَأَمْسَى رَهِينَ الْحَفَرَ<sup>(٤)</sup>  
يَقُولُ فِيْرِخِصُ دُرُّ النَّجُورِ  
وَيُغْلِي جُهَانَ بَنَاتِ الْفِسْكَرَ<sup>(٥)</sup>

وَاسْتَطَرَدَ يَتَحَدَّثُ عَنْ خَصَائِصِهِ فِي شِعْرِهِ ، وَأَنَّهُ كَانَ يَعْنِي بِتَأْلِيفِ  
الْمَقْطُوعَاتِ الْقَصِيرَةِ لِكُنْهِهَا عَلَى قِصْرِهَا لِمَا جَمَالَهَا وَجَسَنَهَا ، وَطَأَ إِعْجَازَهَا وَإِيْدَاعَهَا ،  
بِمَا أَدَّتْ مِنْ نَفَثَاتِ الْهُوَى وَتَعَاوِيدِ الْحُبِّ وَالْجُوَى . وَأَبْنَهُ شَوْقٌ بِمَرْثِيَّةٍ طَوِيلَةٍ ،

(١) الْأَخْدُودُ : الْحَفَرَةُ فِي الْأَرْضِ ، وَالْمَرَادُ بِهَا الْقَبْرُ .

(٢) الْدَّرَجُ : مَا يَكْتُبُ نَيْهُ ، وَالْمَقْدُودُ : الْمَشْقُوقُ .

(٣) يُشَيرُ إِلَى أَنَّ إِسْمَاعِيلَ صَبَرِيَ تَرَفَّ مَعَ أَوْلَى الرَّبِيعِ .

(٤) عَمَانُ : فِي الْجَنُوبِ الشَّرْقِ لِلْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى خَلْيَجِ الْعَربِ ، وَتَشَهَّرُ بِالْلَّوَازِ الْمُسْتَخْرَجِ مِنْ مِيَاهِهَا .

(٥) الْجَهَانُ : الْأَلْزَلُ .

ذكر فيها تلمذته له ورعايته الأدبية ، إذ يقول في وصف قصيده :

هذا هو الريحان إلا أنه نفحات تلك الروضة المتناف <sup>(١)</sup>  
والدر إلا أن مهد يتيمه بالأمس لجأة بحرث القذاف  
أيام أمرح في غبارك ناشئًا هرج المهاجر على غبار « خصاف » <sup>(٢)</sup>  
أعلم الفيات كيف ترجم في مضمار فضل أو مجال قواف

و واضح أن شوق ، يذكر له فضله عليه في الشعر وفي التخلق بالأخلاق الكريمة . ولما سبقه حافظ إلى الدار الباقية بكاه بمرثية رائعة افتتحها بقوله :

قد كنتُ أثرَّ أنْ تقولَ رثائِي يا منصفَ الموتى من الأحياء

وما زال يتحدث عن حياته ووفاته لأصدقائه ، وشعره وما خسرت الفصحي بموته ، وكيف نعنه البلاد العربية وبكته ، حتى قال :

يا حافظ الفصحي وحارسَ مجلَّتها و إمامَ من نجَّلَتها من البلاء <sup>(٣)</sup>  
جددتَ أسلوبَ (الوليد) ولفظه وأتيتَ للدنيا بسحر (الطائِي) <sup>(٤)</sup>

ولم يلبث نجم شوق <sup>آن</sup> أقل بعد حافظ بقليل فنعته البلاد الناطقة بالضاد كلها ، ولم تبق بلدة إلا نشجت عليه وبكت ، ولم يبق شاعر من شعرائها إلا استوحى موته مرثية باكية يشيعه بها إلى مثواه الأخير . ومن رائع ما رثى به قصيدة بشارة الخوري ، وفيها يقول :

قف في ربيَّ الخلود واهتف باسمِ شاعره فسدرة المُنتَهى أدنى منابرِه

(١) الروضة المتناف : الروضة التي قلما يمر بها أحد .

(٢) المهاجر : جمع مهرة ، وخصاف : فرس مشهور عند العرب ، والتشبيه واضح .

(٣) نجلت : ولدت .

(٤) الوليد : البحترى ، والطائِي : أبو تمام .

وامسح جبينك بالرُّكن الذي انباحت أشعة الوَحْيِ شعراً من مناورة  
إلهة الشعر قامت عن ميامنِه وربة اللَّثْر قامت عن ميسره  
والحورُ قصَّتْ شدوراً من غداُرها وأرسلتها بديلاً من ستاره  
ومن الأدباء الذين نعاهم الشعراء في عصرنا جُبران شاعر المهجـر وكاتبـه الفـدـ،  
ولهمـلـهـ منـ الشـعـراءـ فـيـ دـيـارـ أـمـريـكاـ مـرـاثـ فـيـهـ تـبـرـ عـماـ عـصـفـ بـقـلـوبـهـ مـنـ حـزـبـهـ  
عـلـىـ زـمـيلـهـ حـزـنـأـعـمـيقـاـ، وـمـنـ قـوـلـهـ نـسـيـبـ عـرـيـضـهـ فـيـهـ:

أيها الشاعر الألهي طوبى لك في الأوج حيث روحك ترتفع  
أنسلكتَ التينَ شَدَوْ نايـلـ لـكـ لـكـ لم يـزـلـ لـخـنـهـ يـرـنـ ويـسـمـعـ  
وأناشيدكَ الحسانَ سـتـبـقـ خـيرـ إـرـثـ لـأـمـةـ تـفـجـعـ  
أـرـزـ لـبـنـانـ اـطـاطـيـ هـلـامـ وـاخـشـ سـكـتـ الشـاعـرـ الـذـيـ كـنـتـ تـشـمـعـ  
سيـسـاميـكـ فـيـ جـوارـكـ قـبـرـ هـوـ فـيـ قـلـبـهـ أـعـزـ وـأـرـفـعـ

وعلى هذه الشـاكـلةـ كـلـمـاـ سـقطـتـ القـيـثـارـةـ مـنـ يـدـ شـاعـرـ فـيـ عـصـرـناـ تـولاـهـ إـخـوانـهـ  
وزـلـاقـهـ بـالـبكـاءـ عـلـيـهـ، وـنـثـرـواـ عـلـىـ قـبـرـهـ أـزـهـارـ شـعـرـهـ، وـبـثـوـهـ فـنـائـهـ الشـجـيـةـ.

## حفلات التأيین الحدیثیة

مرـبـنـاـ فـيـ تـقـاصـيـفـ حـدـيـثـنـاـ ماـيـدـلـ عـلـىـ أـنـ أـسـلـاقـنـاـ عـرـفـواـ تـأـيـيـنـ الـجـمـاعـاتـ مـنـ  
الـشـعـراءـ لـفـقـيدـ رـاحـلـ، إـذـكـانـتـ تـقـفـ بـقـبـرـ بـعـضـ الرـاحـلـينـ طـوـافـنـ مـنـ الشـعـراءـ،  
فـتـرـثـيـهـ، وـتـوـبـهـ، وـتـعـرـضـ لـسـجـيـاهـ وـمـنـاقـبـهـ، وـتـحـدـثـ عـنـ عـلـمـهـ الغـرـيرـ إـنـ كـانـ عـالـمـاـ،  
وـأـدـبـهـ الـحـصـبـ إـنـ كـانـ أـدـبـيـاـ، كـاتـبـاـ أوـ شـاعـرـاـ. وـمـعـنـ ذـلـكـ أـنـهـمـ عـرـفـواـ تـأـيـيـنـ  
الـجـمـاعـيـ.

وهكذا شأن عصرنا ، فقد يقف الشعراء على قبور الراحلين ، وقد يعودون بعد وفاتهم ، فيحتفلون بذلك ، إما في تمام الأربعين يوماً من وداعهم وزرائهم في مثواهم الأخير ، أو بعد ذلك ، حسب الظروف والأحوال . وما تزال الصحف تتطلع علينا من حين إلى حين بهذه الحفلات التي يتناول فيها الخطباء والشعراء سير الراحلين .

وتتنوع هذه الحالات ، فهـى تارة تعرض لمصلح اجتماعي كبير أو مصـفى خطير أو زعيم وطني عظيم ، أو شاعر عـنت له الوجه ، أو كاتب انـحت له العـروس ، وفي دواوين شعرائنا قصائد كثيرة نظموها في هذه الحالـات .

وستستطيع أن ترى صورة واضحة منها في كتاب «ذكرى الشاعرين : حافظ وشوق» لأحمد عبيد، فقد جمع فيه أكثر وأجمل ما قيل في تأييدهما ثرثراً وشعراً، وهو كتاب نفيس ، بما صور فيه كتابنا وشعراؤنا عمل الشاعرين جميعا .

ومن حين إلى آخر يظهر مثل هذا الكتاب . ومن الظواهر الطريفة أن المرأة اشتركت في حياتنا الحديثة وأتها تقدمت تحمل اللواء في الشعر وفي النثر وفي الحياة العامة .

وكان له دور كبير في حياتنا الأدبية، وكان لها منتدى يجتمع إليه الأدباء والشعراء، كما كان لها رسائل أدبية لطيفة. فلما توفيت بكاهها البرق وفتحتها الصحف، وأقيم لها حفل تأبين تمجيداً لها ولأياديها وتحية لروحها وما وهبته من نفسها. طبعت الكلمات والقصائد التي ألقيت في هذا الحفل، وبما جاء فيها على لسان العقاد:

حيٌّ (ميًّا) فإن من شيم ميًّا منصفا حيًّا اللسان العربيّا  
وجزي حواء حقاً سرّمدياً وجزي (ميًّا) جزء أريحيّاً  
لذى أسدت إلى أمَّ الكتاب

وجزء في عصرنا الكتاب والشعراء لموت السيدة هدى شعراوى زعيمة النهضة النسائية في مصر ، التي أسست من مالها دورا ومدارس لمن كتب لهم الحظ العاشر ، كما أخذت بأيدي كثير من الفتيات والفتى ، من رأت لديهم مواهب عالية ،

فأرسلتهم إلى حواضر الغرب ليُكملوا علمهم وفهم . وهذه الأيدي الكثيرة لم تذهب عبثا ، فقد تجمعت منها باقة عطرة من الذكرى ، نُسِرت على روحها في حفل تأيين كبير ، تحدث فيه جمهور من الكتاب والشعراء ، أحصوا أعمالها الباهرة ، وسبلوا جهودها الرائعة ، وخليل مطران مرثية بديعة صور فيها ماقدمت لوطنها من أمجاد وفناخ ، ومن قوله :

عَصْمَاءُ خَالِدَةُ الذَّكْرِي عَلَى الْحَقَّ  
كَمَا تَفَرَّدَتِ بِالْأَقْوَالِ وَالْخُطُبِ  
لَا انْتَهِي بِجُبْنٍ إِلَى عَجَبٍ  
مُسْتَقْبِلُ الشَّعْبِ فِيهَا كُلُّ مُرْتَقْبٍ  
وَالْأَمْهَاتِ لِجِيلِ عَامِلِ دَرِبِ  
هَذَى ! بَلَغْتِ بِمَا أَبْلَيْتِ مِنْزَلَةً  
قَدْ تَفَرَّدَتِ بِالْأَفْعَالِ بَاهِرَةً  
مَؤْسَسَاتِكَ لَوْعَدَتِ وَلَوْوَصَفَتِ  
آيَاتُ عَصْرٍ جَدِيدٍ لِلرُّقْقِ يَرَى  
بِهَا تُمَدُّ الْبَنَاتِ الصَّالِحَاتِ لَهُ

وليس المرة وحدها التي تشهِّدُ عَنِ نظرنا في هذه الحفلات الحديثة للتأيين ، فإننا نجد فيها تكريهاً للنابغين من الفنانين ، لا الكتاب والشعراء فقط ، بل أيضاً النحّاتين والرسامين ، وأصحاب الموسيقى والغناء ، وتشوق مرثية طويلة ألقبَت في حفلة تذكارية تمجيداً لشيخ سلامه حجازي الذي تسمى قمة المجد في فن الغناء والممثل أولئك هذا القرن ، وفيها يقول :

كَانَ دُنْيَا وَكَانَ فَرْحَةً جَيلٌ  
حَلَّ فِي رَبْوَةٍ عَلَى سَلْسِيلٍ  
دِعَى فَرْعَةَ السَّرِّيِّ الْأَسِيلِ<sup>(١)</sup>  
عَلَيْهِنَّ رُوعَةً التَّشِيلِ  
بُلَّ فِي النَّاعِمِ الْوَرِيفِ الظَّلِيلِ  
وَعَلَيْهِ قَدَاسَةً التَّرْتِيلِ  
يَا ثَرَى النَّيلِ فِي نَوَاحِيكَ طَيْرٌ  
لَمْ يَزُلْ يَنْزُلُ الْمَهَائِلَ حَتَّى  
عَبْرَيَا كَأْنَهُ زَنْبُقُ الْخَلْدِ  
أَيْنَ مِنْ مَسْعَمِ الزَّمَانِ أَغَازِ  
أَيْنَ صَوْتٌ كَأْنَهُ رَنَّةُ الْبَلْدِ  
فِيهِ مِنْ نَفْمَةِ الْمَازَمِيرِ مَعْنَىٰ

(١) السري : البخلول والأسيل : الطويل المسار.

ولذا أخذنا نقرأ في ديواني حافظ وشوق راعينا أنه لم يمت صاحب عمل مجيد ناصع في حياتنا الحديثة أو صاحب رأي وعقيدة ، أو صاحب مثل وغاية نبيلة ، إلا اجتمع لحوانه على ذكراه ، وأقاموا له تأبينا حافلا ، ووقف حافظ معهم أو وقف شوق ، أو وقفا جمِيعاً ينثران مدامعهما وأشعارهما على الراحل الكبير . ويحيطونا بقية الشعراء في أقطارنا العربية .

وقد أخذت تظهر في التأبين هنا وهناك تلوينات حديثة لم يكن يعرفها الشعراء في العصور الماضية ، إذ كان الشاعر يحصر نفسه في المناقب الفردية الخاصة بالراحل ، أما في عصرنا الحديث فإن الشعراء أخذوا يعرضون في رثائهم للمناقب الاجتماعية ، وما أسداه الفقيه لمجتمعه من وجوه بيرٌ وإصلاح في مختلف نواحيه ، فإذا مات مثلاً قاسم أمين الداعي لتحرير المرأة عرض الشعراء في رثائه لدعوه على نحو ما نجد عند حافظ وشوق في تأبينه ، ولو أنهم لم يكونوا حينئذ من رأيه .

ولعل أهم التلوينات التي أدخلت على المرثية الحديثة ما انصبَّ من التزعات السياسية والوطنية فقد نزل الاستعمار بالأمم الشرقية ، ولم يلبث أن ظهر في كل بلد من بلادنا مجاهدون وزعماء استحقوا تمجيد أوطانهم . وكان كلما نعى البرق واحداً منهم هبَّ شعراً يوقعون على قيثاراتهم أشجان المواطنين وأحزانهم . وفي ديواني حافظ وشوق مراث لسعد زغلول ومصطفى كامل ومحمد فريد وغيرهم من تقدموا الصفوف ، وضبغوا على المستعمر بكل ما يملكون من قوى في أوطانهم . وهذا حافظ يقول في مصطفى كامل :

شاهدتُ يوم الحشر يوم وفاته  
وعلمتُ منه مراتب الأقدار  
حقَّ الولاء وواجب الإكبار  
يمشون تحت لوائكم السيَّار  
للحزن أسطاراً على أسطار  
ركبُ الحبْيج بكعببة الزوار  
وتغالمهم آنا لفترٍ خشوعهم  
عند المصلى يُنصلون لقارى

وواضح أنه يصور فجيعة الأمة المصرية فيه ، والمرثية كلها تدور حول جهاده وما غرس في وطنه من حراب للمستعمر بما كان يكتب في صحيفة «اللواء» وبما كان ينطرب في أمته ضد كرومرو وإنكليلز ، وبمواقفه الوطنية التي ألمبت مشاعر المصريين ، وسررت نيران الصراع فيهم ضد المستعمرات العاشرين . ومرثية شوق في سعد زغلول التي يستهلها بقوله :

شَيْعُوا الشَّمْسَ وَمَلَوا بِضُحَاهَا      وَانْهَنَّ الشَّرْقَ عَلَيْهَا فَبِكَاهَا

أروع ما ديجنه يراعته في الرثاء الوطني . وهو يضيف إلى مراهيه الوطنية مران لزعماء العرب وقادتهم في بلدانهم المختلفة ، فهذا فوزي الغزى أحد المجاهدين ضد الفرنسيين في سوريا الشقيقة ، تقيم له بلاذه حفل تأبين ، فيأتي شوق إلا أن يرفرف بروحه مع المؤمنين ، فيرسل بمرثية تُتَلَّـ في الحفل ، وفيها يقول :

يَا (فُوز) تَلَكَ دَمْشَقُ خَلْفَ سَوَادِهَا      تَرْمِي مَكَانَكَ بِالْعَيْنِ وَتَرْمِقُ<sup>(١)</sup>  
    (بَرَدَى) وَرَاءَ ضَفَافِهِ مُسْتَعْبَرٌ وَالْحُورُ مَحَلُولُ الضَّفَافَاتِ مُطْرَقٌ<sup>(٢)</sup>  
    وَالْطَّيْرُ فِي جَنِيَّاتِ (دُمَرَ) نُوَحٌ يَجِدُ الْهُمُومَ خَيْرَهُنَّ وَيَأْرَقُ<sup>(٣)</sup>

وعلى هذا النحو أصبح عالمنا العربي الحديث أشبه بالجسد الواحد ، إذا اشتكت فيه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والآلام

(١) سواد دمشق : القرى التابعة لها .

(٢) بردى : نهر يشق دمشق ، والحور : شجر ، وضفافاته : غصونه .

(٣) دمر : من ضواحي دمشق ، والخل : المال من الهموم .

## الفصل الثالث

### العزاء

١

### معنى العزاء

أصل العزاء الصبر ، ثم اقتصر استعماله في الصبر على كارثة الموت ، وأن يرضى من فقد عزيزاً بما فاجأه به القدر ، فتلك سُنّة الكون ، نولد ، ونمضي في الحياة سعداء أو أشقياء ، ثم نموت ، وكأن الناس راحلون وهو لا يفكرون عَقْدَ رَحْلِهِم إِلَّا فِي أَجْدَاثِهِم ، فهي قراهم ، وهي غاياتهم التي ينتهيون إليها ، ولا مفر لهم منها ولا خلاص .

وإذن فليقبلوا الحياة كما هي ، ليقبلوها على أنها دار زوال وانتقال ، وليست دار بقاء واستمرار ، فكل يلعب دوره ويمضي ، ولا شيء يدوم . يقبل النهار المشرق ثم يدبّر ويخرج الليل المظلم ، وينعقد السحاب وت بكى السماء ثم يصحو الجنو ويصفو . والإنسان ضعيف أمام هذا التغير والتقلب ، لا يملك من أمره ولا من حياته شيئاً ، فسرعان ما يعصف به الموت ، فإذا هو محمول على آلة حَدَّباء .

إنه عاجز ، وليس له إلا أن يذعن إذاعنا خالصاً ، إذاعاناً لا تشويه مقاومة ، وهل من أمل في مقاومة ، وهو يرى نفسه كل يوم مشدوداً في خيوط قوية بيد قاهرة تدبر شؤونه ، وقد تنتهي به إلى الإخفاقة في أمله بل في روحه وجوده ، فإذا هو لا يستطيع أن يستأنف نشاطاً ولا فوزاً وانتصاراً .

وهولاء الذين نحبهم ونؤثرهم على أنفسنا من آباء وأبناء وإخوة ماذا نستطيع أن تقدم لهم حين تسخين ساعتهم؟ إننا منها فكريا وقدرنا لن ندفع عنهم صيحة الموت البغيضة . ونحن نذرف الدموع لفراقهم مدرارا ، ولكن ماذا تفيد الدموع؟ وماذا يفيد الأسى والحزن؟ إنه لا بد من أن نتحمّل المكره ونتعزّز ونصبر على ما نزل بنا .

وكان شاعرُ الجاهلية القديم يفكّر في هذا كله ، فكان يحزن ويُبكي ولِتَاع ويعبّر عن ذلك تعبيراً قوياً في شعره ، ثم يعود إلى نفسه ، فيرى أن كل ما يصنعه لا يعنيه شيئاً ، لأن الحنة في حقيقتها محنة كبيرة ، محنة الناس جميعاً ، يُستحبّون بها صباح مساء ، ولا يستطيعون لها رداً ولا دفعاً . فليترك البكاء والدموع وليستسلم للموت مخذولاً ، بل يائساً مقهوراً ، فالناس كلهم يموتون والناس كلهم يصابون بحَمْمَم أو قريب ، ولعل ذلك ما جعل الخنساء تقول:

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلتُ نفسي  
وما يكون مثل أخي ولكنْ أعزّى النفس عنه بالتأمّل

فهي تجده في بكاء غيرها ما يعزّيها عن أخيها ويسليها عن مصيبةها فيه ، وكان غيرها من الشعراء يمد بصره إلى أفق أوسع ، فيرى أن الحزن والبكاء لا يردّ أن أحداً ، وأن حريّاً به أن يكون جلداً صابراً على المصيبة تلم به ، ولا يستشعر خذلاناً ولا ضعفاً .

ونجد عند كثير من الجاهليين نزعة إلى الاستسلام للقدر ، فالموت كأس يذوقها الجميع ، لم يسلم منها أحد ، لا ملك ولا سوقة ، وكم من دولة دالت وجماعة باذت ، من مثل قوم نوح وعاد وثود ومثل كسرى وسابور ملكي الفرس وملوك الروم والختلفين وملوك الحيرة . ولعدى بن زيد العبيادي شعر كثير في ذلك ، يقول في بعض قصيده :

أين أهل الديار من قوم نوح ثم عاد من بعدها وثود  
ويقول :

. أَنْ كُسْرِيَّ، كُسْرِيَ الْمَلُوكُ أَنْوَشِرْزَانْ وَانْ أَمْ أَمْ قَبْلَه سَابُورُ  
وَبَنُو الْأَصْفَرِ الْكَرَامِ مَلُوكٌ ॥ رَوْمَ لَمْ يَقِنْ مِنْهُمْ مَذْكُورُ

وَكَانَ الْجَاهِلِيُّونَ يُشِيرُونَ هَذِهِ الْأَفْكَارِ وَمَا يُشَبِّهُهَا لِلتَّعْزِيَّةِ عَنِ الْمَوْتِ وَبِيَانِ  
أَنَّ دَاعِيهِ لَا يَقْلُعُ ، وَأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ إِلَيْهِ يَرْجِعُ .

وَلَا عَتَّ أَصْحَوَاءِ الْإِسْلَامِ فِي النُّفُوسِ أَخْدَثَتْ تَظَاهَرُ مَعَهُ نِزَعَةً جَدِيدَةً فِي الْعَزَاءِ  
تَقْوِيمُ عَلَى التَّسْلِيمِ لِلَّهِ وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ وَالصَّبَرِ عَلَى امْتِحَانِهِ احْتِسَابًا وَطَلْبًا لِلأَجْرِ  
وَالْمُثْوِبةُ مِنْ عَنْهُ وَاقْتِدَاءُ بِقَوْلِهِ سَبِّحَانَهُ « وَبَشَّرَ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ  
قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أَوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأَوْلَئِكَ هُمُ  
الْمَهْتَدُونَ » .

## ٢

## الْعَزَاءُ فِي الْأَهْلِ

كَانَتِ الْعَادَةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ يَعْزِزَ الشَّاعِرُ نَفْسَهُ إِذَا مِنْ يَفْقَدُ مِنْ أَهْلِهِ  
وَأَشْرَافِ قَبْلَتِهِ ، فَعِزَاؤُهُ يَوجَهُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَى نَفْسِهِ ، ثُمَّ إِلَى مِنْ حَوْلِهِ . وَلَا جَاءَ  
الْإِسْلَامُ وَنَشَأَتْ طَبَقَاتُ الْمُخْلَفَاءِ وَالْوَلَادَةِ ، وَأَخْدَثَتْ تَتَأَلَّفُ حَوْلَ كُلِّ خَلِيفَةٍ وَأَمِيرِ  
أَوْ حَاكِمٍ كَبِيرِ طَبَقَةٍ مِّنَ الشَّعَرَاءِ تَقْفَ نَفْسَهَا عَلَى مَدِيْجَهُ وَتَسْلِيَّهُ إِنْ أَرَادَ التَّسْلِيَّةَ  
رَأَيْنَا هَذِهِ الطَّبَقَةَ تَعْمَدُ جِينَ تَلَمْ بِهِ مُصِيبَةً إِلَى تَعْزِيَّتِهِ فِيهَا . وَدَارَ ذَلِكَ أَكْثَرُ مَا دَارَ  
حَوْلَ فَقْدِ الْأَبْنَاءِ وَأَفْلَادِ الْأَكْبَادِ ، فَكَانَ الشَّاعِرُ إِذَا مَاتَ أَبُونَهُ خَلِيفَةً يَبْلُو إِلَى  
تَحْفِيفِ بُلَوَاهُ فِيهِ بَأْيَاتٍ تَحدِّدُ مِنْ لَوْعَتِهِ ، وَتَكْسِرُ مِنْ فَجِيْعَتِهِ ، بِمَا يُذَكِّرُ مِنْ  
أَنَّ الْمَوْتَ حَتَّمَ وَاجْبَ عَلَى النَّاسِ ، فَكُلُّ نَفْسٍ ذَائِفَةُ الْمَوْتِ ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ رَاحِلٌ  
إِلَى التَّبَرِ ، عَلَى نَحْوِ مَا قَالَ بَعْضُ الشَّعَرَاءِ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَقَدْ تُؤْفَىَ إِيْنَهُ  
عَبْدُ الْمَلِكِ :

تعزَّ أميرَ المؤمنين فِيَهُ لَمْ قَدْ تَرَى يُنذَّى الصَّغِيرُ وَيُولَدُ  
هُلْ أَبْنُكُ إِلَّا مِنْ سَلَالَةِ آدَمَ لَكُلَّٰٰ عَلَى حَوْضِ الْمَنِيَّةِ مَوْرِدُ

وقد يعرض الشعراء لمعان اجتماعية ، وخاصة معنى الشماتة في المصيبة ، فيتحدثون عن أن الموت لا يسلم منه أحد ، وأن من لم يدركه اليوم في عزيز له يدركه غدا ، فُيُشطرُ منه أصله أو فرعه ، ويتجه في أحنته ، وتقرح جفونه في أهل موته . ولمَّا ابن عبد الأعلى بهذا المعنى في تعزية سليمان بن عبد الملك في ولِّ عهده وأُكِبر ولده أَيُوب ، إذ يقول :

ولقد أقولُ لِذِي الشَّمَاتَةِ إِذْ رَأَى  
أَبْشِرُ فَقَدْ قَرَعَ الْحَوَادِثُ مَرْوِيَّ  
وَافْرَجَ بَهْرَوْتَكَ الَّتِي لَمْ تَقْرَعْ  
إِنْ عِشْتَ تَقْبَحَ بِالْأَحْبَبِ كَلْمَهُ  
أَيُوبُ مَنْ يَشْمَتُ بِمَوْتَكَ لَمْ يُطِقْ  
جَزَّاعِي وَمَنْ يَذْقِي الْحَوَادِثَ يَجْزَعُ

وقف الشعراء في مرأى الخلفاء بأبنائهم عند فكرة الاحتساب وطلب ما عند الله ، وأكثروا في ذلك كما أكثروا من الحديث عن خسارة الدين بمومهم وانيار أركانه بفقدتهم ، وفي ذلك يقول أشجع معزيا هرون الرشيد في ابن له مات شابا :

نَفْصُّ مِنَ الدِّينِ وَمِنْ أَهْلِهِ نَفْصُّ النَّيَايَا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ  
قَدْمَتِهِ فَاصْبِرْ عَلَى فَقْدِهِ إِلَى أَبِيهِ وَأَبِي الْقَاسِمِ

وهو يزيد بأبي القاسم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ويقول له إنه في ميزانك يوم القيمة ، وقد قدمته فلا تجزع ، واصبر حتى يكتب لك في باقياتك الصالحت . ومن تعازى الخلفاء المشهورة في أبنائهم مريضة الشاعر المصري كمال الدين بن النبي في على بن الخليفة الناصر للدين الله ، وهو يستهلها بقوله :

النَّاسُ لِلْمَوْتِ كَخَيْلِ الْعَرَادِ فَالسَّابِقُ السَّابِقُ مِنْهَا الْجَوَادُ

وَاللَّهُ لَا يَدْعُ إِلَى دَارِهِ  
إِلَّا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ ذَلِكَ عَبَادَ.  
وَالْمَوْتُ نَقَادُ عَلَى كُفَّهُ  
جَوَاهِرٌ يَخْتَارُ مِنْهَا الْجِيَادَ.  
وَالْمَرْءُ كَالظَّلَّ وَلَا بُدَّ أَنْ  
يَزُولَ ذَاكَ الظَّلَّ بَعْدَ امْتِدَادَ.

ثُمَّ أَخْذُ يَكِيهِ حَتَّى انتَهَى إِلَى قَوْلِهِ :

خَلِيفَةَ اللَّهِ اصْطَبِرْتُ وَاحْتَسِبْتُ  
فَمَا وَهَى الْبَيْتُ وَأَنْتَ الْمَهَادُ  
إِذَا دَجَأَ الْخَطْبُ وَضَلَّ الرَّشَادُ  
فِي الْعِلْمِ وَالْحِلْمِ بِكَمْ يُقْتَدَى  
وَأَنْتَ لَحْ الْبَحْرِ مَا ضَرَّهُ  
أَنْ سَالَ مِنْ بَعْضِ نَوَاحِيهِ وَادَّ

وَكَثِيرًا مَا كَانَ الشُّعُرَاءِ يَحْوِلُونَ التَّعْزِيَةَ إِلَى الْبَكَاءِ عَلَى الْفَقِيدِ وَالْإِشَادَةِ بِهِ ،  
كَأُنْهِمْ يَرَوْنَ فِي ذَلِكَ مَا يَنْفَسُ بَعْضُ الشَّيْءِ عَنِ الْأَبْهَارِ ، وَكَأُنْهِمْ  
يَدَاوِونَ الْفَرَّارَ بِالْقَرْحِ ، فَهُمْ يَبْكُونَ مَعَهُ وَيَسْتَرْجِعُونَ حَتَّى تَشُوبَ نَفْسَهُ إِلَى رِشْدِهَا  
وَتَسْكُنَ بَعْدَ فُورَةِ الدَّمْوعِ وَثُورَةِ النَّوَاحِ وَالْأَئِنِينِ ، فَقَدْ أَدْبَتَ لَلْوَلَدَ الْحَقْرَقَ وَكَانَ  
الْتَّرَابُ لَمْ يُسْوَرْ إِلَّا أَعْظَمَهُ ، أَمَّا ذِكْرَاهُ فَبَاقِيَةٌ ، وَهِيَ ذِكْرٌ تُبَسِّكِي ، وَنَفْسُ الْبَكَاءِ  
فِيهَا هُوَ الصَّبَرُ وَالثَّائِسِ . وَمَعْنَى ثَانٍ فِي هَذَا العَزَاءِ ، كَأُنْ الشَّاعِرِ يَقُولُ إِنَّ النَّاسَ  
فَلَدَاءُ هَذِهِ الْحَلَالِ ، وَلِيُسَيِّبُهُمْ إِلَّا مِنْ يَفْدِي الرَّاحِلَ الْكَرِيمَ . وَمِنْ هَذَا اللَّوْنِ  
قُولُ أَبِي تَمَامَ فِي ابْنِيْنِ لَعْبَدَ اللَّهِ بْنَ طَاهَرَ صَاحِبِ خُرَاسَانَ لِعَهْدِ الْمَأْمُونِ ،  
وَكَانَا مَا تَا صَغِيرِيْنِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ :

نَجْمَانَ شَاءَ اللَّهُ أَلَا يَطْلَعُ  
إِلَّا ارْتِدَادَ الْطَّرْفِ حَتَّى يَأْفَلُ  
إِنَّ الْفَجِيْعَةَ بِالرِّيَاضِ نَوَاضِرًا<sup>(١)</sup>  
لِأَجْلِّ مِنْهَا بِالرِّيَاضِ ذَوَابًا  
لِلْكَرْمَاتِ وَكَانَ هَذَا كَاهْلًا<sup>(١)</sup>  
لَهْفَى عَلَى تَلَكَ الشَّوَاهِدِ فِيهَا  
لَوْ أَمْهِلَّتْ حَتَّى تَكُونَ شَمَائِلًا  
خَلْمًا وَتَلَكَ الْأَرْيَحِيَّةُ نَاثِلًا

(١) يَسْنَا : يَؤْجِلُ ، وَالْغَارِبُ : أَسْفَلُ الْمَنْقِ إلى الظَّهِيرَ .

إن الملال إذا رأيت نوّهَ أيقنتَ أنْ سيصيرُ بذرًاً كاملاً

فهو يبكي طفلين في المهد ، ومع ذلك أبي إلا أن يخلع عليهما شواهد لشمائل زكية ، وقد أخذ يصورهما بصور تُكبر من المصيبة فيهما ، وكأنه يريد أن يشفي غلَّةً أيهما ويطفِئ حرقة فؤاده ، فهما روضان ذبلاً في إبانهما ، وهلالاً أصابهما الحق في أوطنا ، وهما فحة من أبيهما لم تثبت أن فنيت وذابت في خِضمَّ الحياة .

ومن أطرف ما جاء في عزاء الأبناء مرثية للمتنبي في أبي الهيجاء بن سيف الدولة ، فقد رحل عن أبيه إلى الدار الباقة قبل أن يبلغ مبلغ الرجال ، فبكاه المتنبي وعزاه فيه بقصيدة رائعة من قصائده ، افتتحها بوصف الحزن عليه وخمس النساء لوجوههن ولطمهمن وندبهن ، وقال إن مثله لا يُبكي عليه بقدر سنته ، فهو صغير ، وإنما يبكي عليه بقدر أصله وشرفه ، ثم توجه إلى سيف الدولة قائلاً :

عزاءك سيفَ الدولة المقتدَى بهِ     فإنك نَصَلٌ والشدائدُ النَّصَلِ  
ولم أرْ أَعْصِي منك للحزن عَبْرَةَ     وأثبتَ عَقْلًا والقلوبُ بلا عَقْلٍ  
ومنْ كانْ ذَا نَفْسٍ كَنْفَسِكَ حُرَّةٌ     ففيه لها مُغْنٌ وفيها له مُسْنِلٌ

ورجع يتحدث عن الموت الذي نزل بهذا العلام مستعبراً باكياً ، مستخرباً العظام على عادته ، فالدنيا كلها غرور ، والبقاء فيها قليل ، واستمر في ذمها ، حتى انتهى غاضباً إلى قوله :

وَمَا الدَّهْرُ أَهْلَهُ أَنْ تَؤْمَلَ عَنْهُ     حَيَاةٌ وَأَنْ يُشَتَّاقَ فِيهِ إِلَى النَّسْلِ

والعزاء في الأبناء كثير ، أما البناء فيندر العزاء فيهن وخاصة في العصور الأولى ، وكان هذا أثر من آثار عرب الجاهلية الذين يقول فيهم القرآن الكريم «إذا بشَّرَ أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كَظِيم ، يتوارى من القوم من سوء ما يُشَرِّبُ به ، أيمسكه على هُونَ أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون» . ومن الخلفاء الذين حزنوا حزناً شديداً لفقد إيجدي بناتهم الخليفة المهدى ،

ومن عزاء فيها أبو العتاهية . وهذا بعض عزائه :

كأن كل نعيم أنت ذاته  
من لذة العيش يحكي لعة الآل  
لا تلعن بث الدنيا وأنت ترى  
ما شئت من غير فيها وأمثال  
ما حيلة الموت إلا كل صالحة  
أولا فما حيلة فيه لمحال

ونغمة أبي العتاهية المشهور بها من الوعظ والتزهيد في الحياة وبيان أن كلها مصائب واضحة هنا . وهو من أكثر الشعراء حديثا عن الموت ، وأنه لا بد وافد على حال ، فالعاقل من يتجهز له ويععد نفسه لفارق الأهل والمال .

وعزى البحري أحد بنى حميد المشهورين بالشجاعة والبطولة لعصره في ابنته له ماتت ، ومن الغريب أنه لم يجد باباً يدخله إلى عزائه فيها إلا ما كان يستشعره العرب في بناتهم ، فقد مضى يواسيه على هذا التححو :

الأَسْيَ واجِبٌ عَلَى الْخَرْجِ إِمَّا نِسَةٌ حُرَّةٌ وَإِمَّا رِبَاءٌ  
أَتَبَكِّيْ مِنْ لَا يُنَازِلُ بِالسَّيِّئِ فِي مُشِيْحًا وَلَا يَهُزُّ اللَّوَاءَ<sup>(١)</sup>  
وَالْفَقَىْ مِنْ رَأْيِ الْقَبُورِ لِمَنْ طَا بِهِ مِنْ بَنَاتِهِ أَكْفَاءَ  
لَسَنَ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ لَعَدَ اللَّادُّ مِنْهَا الْأَمْوَالُ وَالْأَبَاءَ<sup>(٢)</sup>  
قَدْ وَلَدَنَ الْأَعْدَاءَ قِدْمًا وَوَرَةَ نَّتَّلَادُ الْأَفَاصِيَّ الْبَعْدَاءَ<sup>(٣)</sup>  
لَمْ يَئِدْ تِرْبَهُنَّ قِيسُّ تَعِيمٍ عَيْلَةَ بَلْ سَحِيَّةَ وَإِيَّاهُ  
وَتَلَفَّتَ إِلَى الْقِبَائِلِ فَانْظُرْ أَمَهَاتِ يُنْسِبُنَّ أَمْ آيَاهُ  
وَاسْتَرِلَ الشَّيْطَانُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ لَمَا أَغْرَى بِهِ حَوَّاهُ

(١) المشيخ : المانع لما وراء ظهره .

(٢) التلاد : المال القديم .

(٣) قيس : هو قيس بن عاصم التميمي ، وكان يهد كل بنت تولده له : والتربي : الجماعة ، والعيلة : الفقر .

ولعمري ما العجز عندي إلا أن تبكي النساء

فهو يحمد له موت ابنته ، وأن كان القبر كفُشَّها ، ويأخذ في تعداد مساوىً المرأة في رأيه ، فهى لا تنازل الأبطال ، وقد تلد الأعداء ، وهى تنقل المال الموروث من بيت أبيها إلى الأقاصى الغرباء . إن كل امرأة حرية بالموت ، وكان قيس بن عاصم — في رأيه — محقاً في واد بناهه؛ ويقول إن الله لم يعدهن في زينة الدنيا إذ قال جل وعز « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » . وهذه مغالطة من البحترى ، لأنه يعرف أن جمع الذكور والإإناث يغلب فيه الطرف الأول ، فكلمة البنون في الآية الكريمة تشمل البنات ، وقد رأينا حلة القرآن على العرب لنفس هذا الموقف الذى يقفه البحترى . وغالط مغالطة أخرى فى أن العرب لا تنسب إلى الأمهات . بينما النسب إلى الأمهات عندهم شائع في القبائل وفي الأفراد .

والحق أن العزاء هنا يتحول إلى ما يشبه هجاء المرأة . وهى على كل حال نظرة تستمد من القديم . وتلا البحترى كثيراً من الشعراء يذهبون هذا المذهب مثل كشاجم في قوله :

تأس يا أبا بكر لموت الحرة العسكري  
فقد زوجتها القبر وما كالقبر من صهر  
وغضبت بها الأجر وما كالاجر من مهر  
رافف أهديت فيرو من اندر إلى القبر  
وقد يختار في المкро للمرء وما يدري  
قابل نعمة الله وما أولاك من شكر

ولعل من الواجب أن نذكر هنا أن هذه النظرة تغيرت في عصرنا ، ولم يعد لها ظلل ولا ما يشبه الظل في شعرنا ، إذ أصبح للمرأة شأن كبير في حياتنا ، وأصبحت ركناً قوياً في معيشتنا المادية والعقلية ، ولم تعد هينة على النفوس ، بل

أصبحت ذات منزلة كبيرة ، وقد ساهمت في كل شئوننا أثناء السلم وفي الحرب ، ونالت كثيرة من حقوقها ، وهي في سبيل الظفر بقيمة الحقوق . ومن هنا اختلفت اللهجة في رثائها وفي التعزية فيها ، ولم تعد مثلُ أفكار البحري وكشاجم تجري على ألسنة الشعراء ، إنما يجري مثل قول حافظ معزيًّا للبارودي في كريمه :

يا بنتَ (مُحَمَّدٍ) يعُزِّزُ عَلَى الْوَرَى  
تُرْكُوا شَبَابَكَ فِيهِ نَهِيًّا لِلْبَلَى  
وَحَسْنَةُ فَوْقِ سَنَاكِ يَا شَمْسَ الضُّحَى  
يَا نَفْسَ (مُحَمَّدٍ) وَأَنْتِ عَلِيمَةُ  
عَهْدُوكِ لَا تَتَصَدَّعِينَ لِحَادِثِ  
هَذَا التَّرَابِ— وَأَنْتِ أَعْلَمُ— مُلْتَقِي

لِمَنْ التَّرَابُ بِجَسْمِكِ الْمُهُوكِ  
وَاهَا لَغَضْ شَبَابَكَ الْمُتَرَوِّكِ<sup>(١)</sup>  
فَبَكَى لَهُ بَدْرُ السَّمَاءِ أَخْوَكِ<sup>(٢)</sup>  
بِطَرِيقِ هَذَا الْعَالَمِ الْمُسْلُوكِ  
أَوْ أَنْتِ بَاقِيَّةُ كَمَا عَهْدُوكِ  
هَذَا الْوَرَى مِنْ سُوقَةِ وَمُلُوكَ

وهذه نغمة أخرى فيها تقدير ، واعتراف بجلال الرُّزْءِ . وقد مرَّ في حفلات التأيin ما يوضح المساواة التامة في عصرنا بين فقد النساء وفقد الرجال

على أن شعراءنا القدماء إذا كانوا قد قصروا في رثاء البنات فإنهم لم يقتصروا في رثاء الأخوات والأمهات وربما كان المتنبي خير من عزى فيهن ، فقد توفيت أخت سيف الدولة ، وهو نازل برحابه ، يغمره بصلاته ، فنظم فيها قصيدة بدية من قصائده ، تحدث فيها عن غدر الموت وأثر نعيها في الناس وأفني على خلاها وصفاتها ، وما زال ينشي عليها ، حتى قال :

إِنْ تَكُنْ خُلِقْتَ أَنْتِ لَقَدْ خَلَقْتَ  
كَرِيمَةً غَيْرَ أَنْتِ الْمَقْلُولُ وَالْمَسْبُ  
إِنْ تَكُنْ تَفْلِيْبُ الْغَلِيلِ عَنْصَرَهَا  
فَلَيْتَ غَاثِيَّ الشَّمْسَيْنِ غَاثِيَّ

(١) الغض : الناعم .

(٢) حشا التراب : هالة .

فهي إن كانت أئمَّةُ الخلقَ فإنها في الشرف والعقل أعلى من الرجال ، وإن يكن أصلها التغلبي كريماً فإنها أفضل من أصلها لمحاسنها وشميمها ومعاناتها الطيبة ثم يتمنى لو أن الشمس غابت وفقدت ، ولم تغب أخت سيف الدولة ولا فقدت .

والتفت المتنبي بعد ثنائه إلى سيف الدولة يحدثه عن الأيام وعن أخت له قبلها فقدتها ، وأشادبه ، ودعا لهأن لا تناهه الليالي فإنها إن ضربت أصمت ، وحطمت القوى بالضعف ، كما دعا له أن لا تعين من عاداه ، ثم تحدث عن فجعات الدهر وأن الإنسان يصاب دائمًا بمحن ليست في حسابه .

وللمتنبي تعزية أخرى لسيف الدولة في أمه ، وهي لا تقل عن هذه التعزية روعة ولا جمالا ، افتحتها بأننا نعد السيف والرماح لمنازلة الأعداء ، وتختبرنا المنوز دون قتال أو نزال ، ومضى يتحدث عن عشق الناس للدنيا ، وكيف أن وصاها لا يدوم . وتحول يصف كثرة ما يتواли عليه من مصائب الدهر ، ثم انتقل إلى رثاء أم سيف الدولة فأبتهما مبالغًا في تأبينه ، مضيفاً عليها خير الصفات وأجملها وأنبلها ، وما زال في ذلك ، حتى قال مخاطباً سيف الدولة :

أَسَيْفَ الدُّوْلَةِ اسْتَبْرِجْدُ بِصَبَرٍ وَكَيْفَ بِمَثْلِ صَبَرِكَ لِلْجَبَالِ  
فَإِنْتَ تَعْلَمُ النَّاسَ التَّعَزِّيَ وَخُوضَ الْمَوْتَ فِي الْحَرْبِ السَّبَّاجَالِ  
وَحَالَاتُ الزَّمَانِ عَلَيْكَ شَتَّى وَحَالَكَ وَاحِدٌ فِي كُلِّ حَالٍ

فهو يدعوه أن يستعين على مصيبيه في أمه بالصبر ، لأنَّه أهلَه ، إذ له ثبات يفوق ثبات أبطال وركانها . ثم قال له: إن الناس يتعلمون منك العزاء والصبر على اقتحام الموت وغمراته الشداد ، وإن الرمان نفسه ليتلون كالحرباء بالوان مختلفة في السراء والضراء ، أما أنت فثبتت على حال واحدة في الشدة والرخاء ، فثلاث حرثى بأن لا يهن في هذه النازلة ، وأن لا يصييه خور ولا ضعف . ومن أبيات هذه المرثية :

وَلَوْ كَانَ النَّسَاءُ كَمْنَ قَدْنَا لَفُضَّلَتِ النَّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ  
وَمَا التَّائِنُثُ لَاسْمُ الشَّمْسِ عَيْبٌ وَلَا التَّذْكِيرُ فَخُرُّ الْمَلَالِ

واوضح أنه احتاج لتفضيل النساء على الرجال بمحة لطيفة ، فالشمس مؤذنة وهي تفضل الملائكة بنورها الذي يغمر الآفاق .

## العزاء والتهنئة

لم نتحدث عن العزاء في الآباء وهو كثير ، غير أننا نقف منه عند موضوع طريف ، وذلك أن الخلفاء والسلطانين كانوا يتوارثون دولتهم وإماراتهم ، فكان الشاعر يقوم بين يدي الخليفة أو السلطان الجديد يعزيه في أبيه ويهنئه بحكمته ودولته وما انتهى إليه من خلافة أو إمارة .  
وأول من فتن هذا الموضوع ، وأظهر براعة فيه عبد الله بن همام السَّلْوَلِيُّ ، وذلك أن معاوية توفى وخلفه ابنه يزيد ، فلم يقدم أحد على تعزيته لدقة الموقف وصعوبته ، وما زالوا كذلك حتى فتح لهم ابن همام باب الكلام ، فقال :

اَصْبِرْ يَزِيدُ فَقَدْ فَارَقَتْ ذَامِقَةً  
وَاشْكُرْ حِبَاءَ النَّذِي بِالْمُلْكِ حَبَابَا كَا<sup>(١)</sup>  
لَا رُزْءَ أَعْظَمُ فِي الْأَقْوَامِ قَدْ عَلَمُوا  
مَارُزْنَتْ وَلَا عَقْبَى كَعْقَبَا كَا  
أَصْبَحَتْ رَاعِيَ هَذَا الْخَلْقِ كَلَّهُمْ  
فَأَنْتَ تَرْعَاهُ وَاللَّهُ يَرْعَى كَا  
وَفِي مَعَاوِيَةَ الْبَاقِ لَنَا خَلَفْ  
إِذَا بَقِيتَ فَلَا نَسْمَعْ بِعِنْدَهَا كَا

ومعاوية الذي يشير إليه في البيت الأخير هو ابن يزيد وولي عهده . والأبيات فيها براعة ، وفيها دقة بعيدة في الإحساس ، ولطف ورقة في الشعور .  
ومن وقف لهذا الموقف الدقيق ، وأحسن فيه ، بل كاد يقلب لحظته الحزينة إلى لحظة سرور وفرح أبو الشيش الشاعر العباسي ، فإنه قام بين يدي الأمين بعد وفاة أبيه هارون في طوس إحدى مدن إيران ، فقال :

جَرَّتْ جَوَارِي بِالسَّعْدِ وَالنَّحْسِ فَتَحَنَّ فِي وَحْشَتِ وَفِي أَنْسِ

(١) المقنة : الحبة ، والحباء : المظاء .

العينُ تبكِّي والسنُّ ضاحكةٌ فتحنُ في مأتمٍ وفي عُرسٍ  
 يُضحكنا القائمُ الأمينُ وتبَّأّ كينا وفاة الرشيد بالآمنِ  
 بدران : بَدْرٌ أَضْحَى ببغداد في الـَّمْسَ (١)  
 خُلُدٌ وبدْرٌ بطوسَ في الرَّمْسَ (٢)

وتعبر هذه الآيات خير تعبير عن فرحة الشعراة بالأمين ، إذ كان محبوها  
 منهم ، قريباً إلى نفوسهم .

ولما توفى المعتصم وخلفه ابنه هرون الواثق تقدم إليه أبو تمام يعزيه ويهنئه  
 بقصيدة طويلة ، افتتحها بالحزن على الراحل والإشادة بمناقبه ومحامده ، وما زال  
 يدور في هذين المعنين حتى قال :

ما دام هرونُ الخليفةَ فالهَدَى فِي غُبْطَةٍ مُوصولةٍ بِدَوَامٍ  
 اللَّهُ أَيُّ حَيَاةٍ ابْعَثْتَ لَنَا يَوْمَ الْخَيْسِ وَبَعْدَ أَيِّ حَمَامٍ (٣)  
 تَلَكَ الرِّزْيَةُ لَا رَزِيقَةٌ مِثْلُهَا وَالْقَسْمُ لَيْسَ كَسَائِرِ الْأَقْسَامِ  
 مَا إِنْ رَأَى الْأَقْوَامُ شَمِيسًا قَبْلَهَا أَفْلَتْ فَلَمْ تَقْبِهِمْ بِظَلَامٍ  
 أَكْرَمْ يَوْمَهُمُ الَّذِي مُلْكَتْهُمْ فِي صَدْرِهِ وَبِعَامِهِمْ مِنْ عَامٍ

واستطرد في مدح الواثق بعد ذلك .

وعلى هذه الشاكلة أخذ الشعراة يصنون في العزاء والتهنئة قصائد يلمون فيها  
 بفضائل السابق واللاحق ، ويقولون إن ميزان الدولة والأمة لن يميل ، إذ تولته  
 يد عادلة ، بل إن هذا الخليفة الجديـد أرسلـته العـنـية الإلهـيـة لـتجـبـرـ بهـ الأـمـةـ ، وـيـتمـ  
 لهاـ صـلاحـهاـ وـاستـقـامتـهاـ . وـكـثـيرـ هـمـ الشـعـراـءـ الـذـيـنـ وـقـفـواـ هـذـاـ المـوـقـفـ ، وـمـنـ جـلـىـ فـيـهـ  
 عبد الله بن الحسن البجعفـيـ ، فـقـدـ مـثـلـ بـيـنـ يـدـىـ العـزـيزـ الـخـلـيقـ الـفـاطـمـيـ يـعـزـيهـ  
 فـأـيـهـ وـيـهـنـىـ بـخـلـافـةـ مـصـرـ قـاتـلاـ :

(١) الخلد : قصر الخليفة ببغداد ، الرمس : القبر .

(٢) الحمام : الموت .

فِي خَيْرِ مَنْ كَانَ مِنْ خَيْرِ الْوَرَى بَدَلًا  
لُولَاكَ فِي الدَّهْرِ مَا نَالَ امْرُؤٌ أَمْلًا  
إِلَيْهِ مُضطَلُّا بِالْعِبَرِ مُخْتَلِّا  
مِنْ بَعْدِ خَيْرِ إِمامٍ قَوْمَ الْمَيَادِ<sup>(١)</sup>  
فَذَا أَبْنَهُ كَافِلٌ عَنْهُ بِمَا كَفَلَ<sup>(٢)</sup>  
رَاسٌ لَنَا بَعْدَهُ أَعْظَمُ بِهِ جَبَلٌ  
كَأَنَّهُ الشَّمْسُ فِيهَا حَلَّتِ الْمَحَارِ<sup>(٣)</sup>

قَدْ أَصْبَحَ الْجَوْهَرُ الْعُلُوِّيُّ مُنْتَقِلاً  
يَا مِنْحَةَ كَمْلَتْ فِي مُحْنَةٍ عَظِيمَةَ  
قَامَ الْعَزِيزُ بِمَا أَفْضَى الْمَعْزُ بِهِ  
فَقَامَ أَحْفَظُ مُسْتَرْعَى رَعَى فَكَفَى  
فَإِنْ مَضِيَ كَافِلُ الدِّينِيَا وَمَا ضَمَنَتْ  
وَإِنْ هَوَى الْجَبَلُ الرَّاسِيُّ فَذَا جَبَلٌ  
عَمِّتْ خَلَافَتِهِ الدِّينِيَا بِرُونَقَهَا

وَفِي الْأَيَّاتِ نَزْعَةٌ شِيعِيَّةٌ وَاضْحِيَّةٌ ، فَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْجَوْهَرِ الْعُلُوِّيِّ وَكَيْفَ  
اَنْتَقَلَ مِنَ الْمَعْزِ إِلَى أَبْنَهِ ، وَيُسَمِّيهِمَا كَافِلَيِ الدِّينِيَا ، وَيَجْعَلُ الْعَزِيزَ أَحْفَظَ مِنَ  
رَعَى الْعِبَادَ ، وَمَا يَرَالِ يَقَابِلُ بَيْنَ الْأَبِ وَابْنِهِ مُتَرْحِمًا مَعْزِيَا ، وَمَادِحًا مَهْنِتَا ،  
مُسْتَظْهَرًا لِبَعْضِ الْعَقَائِدِ الشِّعِيَّةِ .

وَمِنْ أَجْنَادِهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ابنُ زِيدُونَ شَاعِرُ الْأَنْدَلُسِ الْمُشْهُورُ ، فَقَدْ تَرَوَ  
أَبُو الْحَزَمِ جَهَّوْرَ مَلِكَ قُرْطَبَةَ ، وَخَلْفَهُ أَبُو الْوَلِيدَ ، وَكَانَ صَدِيقًا لَهُ ، فَنَظَمَ  
قَصْبِيَّةً بَارِعَةً ، اسْتَهْلَكَهَا بِالْمَعَزَاءِ وَالْمَهْنَةِ عَلَى هَذَا النَّطَقِ :

وَأَنْ قَدْ كَفَانَا فَقَدَّهَا الْقَمَرُ الْبَدْرُ  
فَقَدْ فَاضَ لِلآمَالِ فِي إِثْرِ الْبَتْحَرِ<sup>(٤)</sup>  
وَذَنْبُ زَمَانٍ جَاءَ يَتَبَعَّهُ الْعَذْرُ  
لَنَا اللَّيلُ إِلَارِيَّثَا طَلَعَ الْفَجْرُ<sup>(٥)</sup>  
وَالظَّاهِمُ الْغَرُورُ قَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ

أَلْمَرَ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ ضَمَّهَا الْقَبْرُ  
وَأَنَّ الْحَلِيَّاً إِنْ كَانَ أَقْلَعَ صَوْبَهُ  
إِسَاهَةَ دَهْرٍ أَحْسَنَ الْفِقْلَ بَعْدَهَا  
فَلَا يَتَهَنَّ السَّكَاشُونَ فَا دَجَّا  
فَقَلَ لِلْعَيَّارِيِّ قَدْ بَدَأَ عَلَمَ الْهَدَى

(١) الْمَيَادِ : الْعَوْجُ .

(٢) الْكَافِلُ : الصَّامِنُ .

(٣) الْحَمَلُ : أَوْلُ الْبَرْوَجِ .

(٤) الْحَيَا ، الْمَطَرُ : وَالصَّوبُ : الْأَنْصَابُ .

(٥) السَّكَاشُونُ : الْأَعْدَامُ .

وفي كل مكان من العالم الإسلامي نجد الشعراء يقفون هذا الموقف من الحكماء ، يعزونهم وبهشتهم معتبرين عن فرحة الناس بهم واستبشارهم بتسليمهم لمقاليد الأمور بعد آباءهم ، منوهين بما تأمله البلاد من نعم تم وآلاء عم . ولابن نباتة أبيات تدور على كل لسان قالها يعزى بها السلطان الأفضل صاحب حماة في أبيه ويئشه على تحول الملك إليه ، وهي تجري على هذا النحو :

هناك سما ذاك العزاء المقدّما  
ثبور ابتسام في ثبور مداعم  
ستقيث عنا تربة الملك الذي  
ودامت يد النعيم على الملك الذي  
 مليكان : هذا قد هو لضربيه

فما عبس المحزون حتى تبسمـا  
شيـهـان لا يـتـازـ ذـوـ السـيـقـ منـهـا  
عـهـدـنا سـيـجـاهـ أـبـرـ وأـكـرـ ما  
ثـدـانتـ لهـ الدـنـيـاـ وـعـزـ بـهـ الـحـمـيـ

وكل هذه براءات تفنن الشعراء في إخراجها وتصويرها ، حتى يقلعوا الحزن مسراً وبالقوس نعيها ، فإذا كان اليوم قد استهل عابساً مكتفها ، فإنه انفرط مستبشراً مبتهجاً ، إنه يوم مأتم وعرس ، وشقاء وسعادة ، وظلم وضياء ، والضياء هو الذي يسود ويُشرق في جنبات الدولة والأمة كما يشرق النهار . والحق أن شاعرنا أجادوا في هذا الموقف ، واستوفوا فيه حظوظاً لا يأس بها من المقدرة والمهارة .

## ٤

## الحياة والموت والخلود

دارت هذه المعانى الثلاث في كثير من قصائد العزاء ، إذ كان من يبكي ميتاً أو يعزى فيه يعرض للحياة وأنها زائلة ، وأن الموت نهاية كل شخص ، وأن على الناس أن يفكروا دائماً في هذا المصير الذي يتطلبه ، وأن يتجهزوا له وينعدوا وزادهم قبل أن تأذف الآفة وتحل الكارثة ، وهي كارثة مقررة

لا مفرّ منها ولا محيسن .

وكانـت هذه الأفـكار تمـر بـخيـلة الشـاعـر الـجاـهـلـي ، وـكـان يـلم بـها ، ولـكـن فـي سـذـاجـة وـبـسـاطـة تـلـامـث حـيـاتـه ، فـلـما ارـتـقـى العـقـلـ الـعـرـبـي أـخـذـت هـذـه الأـفـكار تـتـشـعـب وـتـتـفـرع ، وـتـعـدـ جـذـورـها فـي طـبـقـات جـديـدة منـ الثـقـافـة وـفـهـمـ الـحـيـاة وـما قـرـأـ العـربـ عـنـ الـأـمـ الـأـجـنبـيـة منـ حـكـمـ وـأـرـاءـ فـلـسـفـيـة .

وـأـبـوـالـعـتـاهـيـةـ الشـاعـرـ الـعـبـاسـيـ أـولـ منـ بـسـطـ الـحـدـيـثـ فـيـ الـمـوـتـ وـالـحـيـاةـ ، وـسـاعـدهـ فـيـ ذـلـكـ أـنـهـ سـاقـ شـعـرـهـ فـيـ مـيـادـينـ الـزـهـدـ وـالـوعـظـ ، وـاتـخـذـ منـ الـمـوـتـ أـسـاسـاـ لـتـفـيـرـ النـاسـ مـنـ الـحـيـاةـ وـبـيـانـ أـنـ نـعـيمـهـ لـاـقـيـمـهـ لـهـ وـكـذـلـكـ كـلـ ماـ يـتـصـلـ بـهـ ، فـالـمـلـنـيـةـ تـفـدـوـ عـلـىـ النـاسـ وـتـرـوـحـ ، وـكـلـ سـيـمـوتـ ، وـلـوـعـمـرـ مـاعـمـرـ نـوـحـ ، فـالـمـوـتـ هوـ الـنـهاـيـةـ وـالـغـايـةـ ، وـهـوـ الدـائـمـ الـمـسـتـمـرـ ، أـمـاـ الـحـيـاةـ فـسـرـعـانـ مـاـ تـنـمـيـ وـتـرـوـلـ ، وـلـاـ يـقـيـ لـلـإـنـسـانـ بـلـاـ الصـالـحـاتـ . وـهـوـ يـبـدـيـ وـيـعـيـدـ فـيـ أـنـ النـاسـ وـقـوفـ عـلـىـ هـوـةـ تـحـتـ أـقـدـامـهـ ، وـكـلـ فـردـ يـهـوـيـ فـيـهاـ بـدـورـهـ ، فـلـاـ يـغـرـنـ أـحـدـاـ الـغـرـوـرـ وـلـاـ مـاـ يـعـيـشـ فـيـهـ مـنـ تـرـفـ وـنـعـيمـ ، فـإـنـ ذـلـكـ سـرـعـانـ مـاـ تـنـبـلـ أـزـهـارـهـ ، وـتـحـطـمـ مـخـورـهـ أـمـاـ الـمـوـتـ الـرـهـيبـ ، وـاسـمعـهـ يـقـولـ فـيـ بـعـضـ مـنـ رـثـاـمـ :

لـقـدـ كـنـتـ أـغـدـوـ إـلـىـ قـسـرـهـ وـقـدـ صـرـتـ أـغـدـوـ إـلـىـ قـبـرـهـ  
أـنـتـهـ الـمـيـةـ مـفـتـالـةـ روـيدـاـ ، تـخـلـلـ مـنـ سـتـرـهـ  
فـلـمـ تـفـنـ أـجـنـادـهـ حـوـلـهـ وـلـاـ المـزـعـونـ عـلـىـ نـصـرـهـ  
وـخـلـيـ الـتـصـوـرـ لـمـ شـادـهـاـ وـحـلـ مـنـ الـقـبـرـ فـقـرـهـ  
وـبـدـلـ بـالـفـرـشـ بـسـطـ الـثـرـىـ وـطـيـبـ تـنـدـىـ الـأـرـضـ مـنـ عـطـرـهـ  
وـأـصـبـحـ يـهـدـىـ إـلـىـ مـنـزـلـ عـمـيقـ تـوـنـقـ فـيـ حـفـرـهـ  
تـفـلـقـ بـالـتـرـبـ أـبـوـابـهـ إـلـىـ يـوـمـ يـوـذـنـ فـيـ حـشـرـهـ  
أـشـدـ الـجـمـاعـةـ وـجـدـاـ بـهـ أـشـدـ الـجـمـاعـةـ فـيـ طـمـرـهـ<sup>(١)</sup>

وـكـأنـ المـرـثـيـةـ تـخـولـ عـنـدـ أـبـيـ الـعـتـاهـيـةـ إـلـىـ مـوـعظـةـ ، يـتـخـذـ فـيـهاـ الـعـبـرـةـ وـالـمـثـلـ مـنـ

(١) الـطـمـرـ : الـلـفـنـ .

الموت ، فالناس ولدوا للموت ، وكل ما يبنونه من قصور يقول إلى خراب ، وكل ما يخذلون من عز الدنيا يقول إلى ذُلّ القبر ووحشته . وها نحن ندفن بأيدينا من نحبهم ، وتلقى بهم وراء التراب والأحجار ، ألا ما أحقر الدنيا وكل ما فيها من سرور الحجد وأبهة الترف والتعيم ! . والحكيم من ذهب إلى ما يُريه العقل منها ومن نهايتها الخاتمة لا إلى ما تريه العين من مبالغتها الكاذبة وفاتها الخادعة .

وما يزال الشعراء بعد أبي العتاهية يشدُّون في قياثة شعرهم هذا الوتر حين يرثون ، حتى يطلع المتنبي فيصيف وترا جديدا وأنغاما جديدة ، وذلك أنه كان حانقا على الدهر ، لأنَّه لا يتحقق له آماله ، وكانت آماله فوق أن تتحقق ، إذ طلب فيها طلب الملك والسيادة ، فغضب على الدنيا والزمان ، وذهب بجهوتها هجاء قيحا في شعره . وأخذ نفسه بقراءة الفلسفة وما شاع عند العرب ومتكلسفيهم من حِسْكَم تتصال بالدهر وما يُرمي به الإنسان من سهام الزمن . فلوَّن شعره باليوان فلسفية ، فيها الحكمة وفيها العبارة المنقوله عما قرأ ، ومن هنا اصطبغ رثاؤه بلبساغ لم تكن معهودة للعرب ، كقوله لسيف الدولة يعزيه عن أخته الصغرى :

ولذِيدُ الْحَيَاةِ أَنْفَسُ فِي النَّفَّ سِوَأشَهَى مِنْ أَنْ يُمَلَّ وَأَحَلَّ  
وإِذَا الشِّيخُ قَالَ أَفَ فَا مَلَّ حَيَاةً وَإِنَّمَا الْعَضْفَ مَلَّا  
آلَهُ الْعِيشَ صِحَّةً وَشَبَابًَ فَإِذَا وَلَيَا عَنِ الْمَرْءِ وَلَّ  
أَبَدًا تَسْتَرُّ مَا تَهِبُ الدُّنْيَا فِي الْيَتِيمَ جُودَهَا كَانَ بُخْلَا

فهو يقول إن ما تستلهذه النفوس من الجانب المادي في الحياة يجعلها تستطيلها و تستديمها ولا تملها ، يشير بذلك كما يقول شارحوه إلى ما شاع عند الحكماء من أن النفس تتعلق بالفهم الترابية ، ولا تتعلق بالعلم العلوي إلا إذا شفَّست وصفت من كدرها . وفي البيت الثاني يؤكِّد هذا المعنى ، فالشيخ لا يسام الدنيا وإنما يسام ضعفه وهو منه . والحياة إنما تطيب — كما يقول في البيت الثالث — بالشباب وصحّة الجسم ، فإذا ذهبا عن الإنسان فسد عيشه . وفي البيت الرابع يردد حكمة معروفة وهي : الدنيا تطعم أولادها وتأكلهم . وعلى هذا النحو يربط شراحه دائمًا بين

شعره وبين الحِكْمَةِ التي كانت تروي لعهده عن المُتَفَلِّسَةِ والحكَماءِ ، ومن هنا نقول إنه أدخل على القِبَّاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَتَرَأْ جَدِيداً ، يُسْقِطُ مِنْهُ هَذَا النَّغْمَ وَمَا يَمَاثِلُهُ . ولعل أهم مِراثِيهِ التي يتَضَعُّفُ فِيهَا هَذَا الْجَانِبُ مِراثِيَّهُ الَّتِي يَعْزِزُّ بَهَا عَصْبَدُ الدُّولَةِ بْنُ بُوْيَهِ وَقَدْ مَاتَتْ عَمَّتَهُ ، إِذْ يَقُولُ فِي تَضَاعِيفِهَا :

نَحْنُ بْنُو الْوَتْرِ فَا بِالْتَا نَعَافُ مَا لَبَدَ مِنْ شَرِبِ  
تَبَخَّلُ أَيْدِينَا بِأَرْواحِنَا عَلَى زَمَانٍ هِيَ مِنْ كَسْبِنَا  
فَهَذِهِ الْأَرْوَاحُ مِنْ جَوَهِ وَهَذِهِ الْأَجْسَامُ مِنْ تُرْبَهِ  
لَوْفَكَرُ الْمَاعِشُ فِي مُنْتَهِي حُسْنِ الَّذِي يَسْبِيَهُ لَمْ يَسْبِيَهُ  
لَمْ يُرِيَ قَرْنُ الشَّمْسِ فِي شَرْقِهِ فَشَكَّتِ الْأَنْفُسُ فِي غَرَبِهِ<sup>(١)</sup>  
يَوْمَ رَاعَى الصَّنْأَنَ فِي جَهَلِهِ مَوْتَةً جَالِينُوسَ فِي طِبَّهِ  
وَرَبِّا زَادَ عَلَى نُعْمَرِ وَزَادَ فِي الْأَمْنِ عَلَى سِرْبِهِ<sup>(٢)</sup>

وقد أشار السَّابِقُونَ إِلَى أَنَّ الْبَيْتَ الثَّانِي مِنْقولٌ مِنْ قِولِ بَعْضِ الْحِكَماءِ . «إِذَا كَانَ نَشْوَهُ الْأَرْوَاحَ مِنْ كَرْوَرِ الْأَيَّامِ ، فَلَا لَنَا نَعَافٌ رِجْوَعُهَا إِلَى أَمَاكِنَهَا» وَكَذَّالِكَ الْبَيْتُ التَّالِثُ مَأْخُوذٌ مِنْ قِولِ أَحَدِ الْحِكَماءِ : «اللَّطَائِفُ سَمَاوِيَّةُ وَالْكَثَافَيَّةُ أَرْضِيَّةُ وَكُلُّ عَنْصَرٍ عَادَ إِلَى عَنْصَرِهِ» يَرِيدُ أَنَّ الْإِنْسَانَ مُرَكَّبٌ مِنْ جَوَهِرٍ لَطِيفٍ وَجَوَهِرٍ كَثِيفٍ ، وَالْأَوَّلُ مِنْ الْبَحْوِ وَالْهَوَاءِ ، وَالثَّانِي مِنَ الْأَرْضِ وَالْتَّرَابِ ، وَهُوَ نَفْسٌ مَا جَاءَ فِي بَيْتِ الْمُتَبَّنِي . وَزَعَمُوا أَنَّ الْبَيْتَ الرَّابِعَ مُشَتَّقٌ مِنْ قِولِ بَعْضِ الْحِكَماءِ : «النَّظَرُ فِي عَوْاقِبِ الْأَشْيَاءِ يَزِيدُ فِي حَقَّاقَهَا ، وَالْعَشْقُ عَمَّيَ الْحَسْنَ عَنْ دَرَكِ رُؤْيَاةِ الْمَعْشُوقِ» .

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ الْأَيَّاتَ كُلُّها يَظْهُرُ عَلَيْهَا أَثْرُ القراءَةِ فِي كُتُبِ الْفَلَسْفَةِ . لَا رِيبٌ فِي أَنَّ الْمُتَبَّنِي كَانَ يَقْرَؤُهَا ، وَقَدْ كَانَ الْفَارَابِيُّ أَحَدُ خُلُّسَطَائِهِ فِي حَضْرَةِ سِيفِ الدُّولَةِ ، لَا بُدَّ أَنَّهُ قَرَأَ كِتَبَهُ ، كَمَا قَرَأَ لِغَيْرِهِ مِنَ الْمُتَفَلِّسَةِ ، وَنَقْلَ عَمَّا قَرَأَ هَذَا النَّقْلُ

(١) قَرْنُ الشَّمْسِ : أَوْلُ مَا يَبْدُو مِنْهَا .

(٢) السَّرْبُ هُنَا : النَّفْسُ وَالْأَوْلَادُ .

البديع ، فشutan بين العبارة الأصلية وما صارت إليه ، فقد أصبحت تلمع وتومض وكأنها النجم الثاقب ، إذ كانت المتنبي مقدرة لا تبارى في الحشد والركيز . وانظر إلى البيت الخامس الذي رکر فيه فكرة الفتاء وأن حدوث الأشياء يقتربن به زوالها ، فقد استعان بصورة قوية تلخص فيها كل ما أراد بيانه فمن رأى الشمس طالعة عرف أنها لا بد غاربة . ورکر في البيت السادس فكرة أن الموت لا يسلم منه وضيع ولا شريف ولا جاهل ولا عاقل ولا طيب ولا مطرب ، وحالينوس طبيب وفيلسوف يوناني مشهور . وتوغل في المعنى ساخرًا ، فقال إن راعي الضأن ربما زاد على جالينوس عمرا ، وكان آمنا على نفسه ولدته مع جهله وقلة عمله وعلمه .

وما يزال المتنبي يعرض مثل هذه الأفكار وأن الموت غاية كل حي ، وأن الدنيا ليست إلا طريقاً إليه ، وأن كل إنسان بل كل ما في الكون ينتهي إلى فساد . ويختلفه أبو العلاء فيجتمع عليه إحساسه الخزين بعاهته وفقدان بصره ، وما قرأ في كتب الملاسفة عن الشتاوى والزهد في الدنيا ، وما قرأه عند المتنبي من سخط على الحياة ودم شنيع لها . ويتحول كل ذلك في قلبه إلى بركان ثائر لا يهدأ ولا يسكن أبداً ، بل ما يزال يلفظ بالحُسْنَم ، ولا يزال يتطاير شرها في شعره . ومن أروع مراتيه قصيده التي يرثى بها فقيها حنفيا ، وهي تنفجر منذ مطلعها بهذا السيل الخزين ، إذ يقول :

غَيْرُ مُجْدِيٍ فِي مِلْتَيْ وَاعْتَمَادِيْ نَوْحٌ بِالشَّيْ وَلَا تَرْسُمُ شَادِيْ<sup>(١)</sup>  
وَشَيْبَهُ صَوْتُ النَّعْيِ إِذَا قِيدَسَ بَصَوْتِ الْبَشِيرِ فِي كُلِّ نَادِي  
أَبَكَتْ تَلَكُمُ الْحَامَةُ أَمْ غَنَّتْ عَلَى قَرْنَعِ غُصْنَتِهِ الْمِنَادِ  
صَاحْ هُذِيْ قَبُورُنَا تَلَأْ الرُّخْبَبَ فَأَيْنِ الْقَبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ<sup>(٢)</sup>  
خَفَقَ الْوَطَءَ مَا أَظْنَ أَدِيمَ الْأَرْضِ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ

(١) الشادي : المحنى .

(٢) عاد : من القبائل العربية القديمة التي باعدت

وَقِبْحُ بَنَا وَإِنْ قَدْمَ الْهَـ  
 سِرْ إِنْ أَسْطَعْتَ فِي الْمَوَاهِرْ وَيَدْـ  
 رَبْ لَخَدِّيْ قَدْ صَارَ لَهْدَأْ مَرَادْـ  
 وَدَفِينْ عَلَى بَقِيَا دَفِينْـ  
 تَبَّعَ كَلْهَا الْحَيَاةُ فَأَغْـ  
 إِنْ حَزَنَا فِي سَاعَةِ الْمَوْتِ أَضْعَـ  
 خُلِقَ النَّاسُ لِلْبَقَاءِ فَضَلَّـ  
 إِنَّمَا يُنْتَلِونَ مِنْ دَارِ أَعْـ  
 ضْبَعَةُ الْمَوْتِ رَقْدَةً يَسْتَرِيجُ الـ

دُهَانُ الْآبَاءِ وَالْأَجَدَادِـ  
 لَا اخْتِيَالًا عَلَى رَفَاتِ الْبَيَادِـ  
 ضَاحِكٌ مِنْ تَزَاحِمِ الْأَضَدَادِـ  
 فِي طَوْيلِ الْأَزْمَانِ وَالْآبَادِـ  
 يَجْبُ إِلَى مِنْ رَاغِبٍ فِي اِزْدِيَادِـ  
 فِي سَرُورِ فِي سَاعَةِ الْمَيَادِـ  
 أَمَّةً يَحْسِبُونَهُمْ لِلنَّفَادِـ  
 لِإِلَى دَارِ شِقْوَقَ أَوْ رَشَادِـ  
 جَسْمٌ فِيهَا وَالْعِيشُ مِثْلُ الشَّهَادِـ

فَهُوَ يَقُولُ إِنْ نَوْحَ الْبَاكِيِّ الْحَزِينِ وَغَنَاءِ الشَّادِيِّ الْفَرَحِ كُلَّا هُمَا لَا يَفِيدُ  
 إِلَيْهِنَا وَلَا يَجْدِيَنَا نَفْعًا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الْمُظْلَمَةِ الْبَائِسَةِ الشَّقِيقَةِ ، وَإِنَّهُ لِيُسْمَعُ فِي جَدِـ  
 صَوْتِ النَّاعِيِّ التَّاکَلِ كَصَوْتِ الْبَشِيرِ الْمَهْنِيِّ ، فَالصَّوْتَانِ يَتَشَابَهُانِ فِي  
 كُلِّ شَيْءٍ ، وَهَذَا الْحَمَامُ طَالِمَا قَالَ الشَّعْرَاءِ إِنَّهُ يَنْوَحُ ، وَأَبُو الْعَلَاءِ لَا يَسْتَطِعُ أَنْ  
 يَحْزُمَ بِذَلِكَ ، فَهُوَ لَا يَدْرِي أَيْنَوْحٌ أَمْ يَغْنِي . إِنَّ الْغَنَاءَ وَالنَّوْحَ جَمِيعًا يَتَشَابَهُانِ فِي  
 عَلَيْهِ ، كَمَا تَشَابَهَ الدُّنْيَا فِي مَسَرَّاتِهَا وَأَحْزَانِهَا ، فَهُنَّ جَمِيعًا تَسْتَوِي وَتَتَحَدُّ فِي رَأْيِهِ ،  
 وَتَكُونُ هَذَا الظَّلَامُ الْمُطْبَقُ الَّذِي يَضْغَطُ عَلَى أَنْفَاسِهِ .

وَيَلْتَفِتُ إِلَى سَامِعِهِ وَقَارِئِهِ لِيَرِيهِ أَنَّ الدُّنْيَا كُلُّهَا لَيْسَ إِلَّا جَنَازَةً قَائِمَةً وَمَقْبَرَةً  
 كَبِيرَةً تَمْتَدُ مِنْ أَقْدَمِ الْعَهُودِ ، مِنْ عَهْدِ عَادِ إِلَى عَهْدِهِ ، وَغَایَةُ الْأَمْرِ أَنْ كَثِيرًا مِنْ  
 أَجْزَائِهَا انْهَتَ مَعَالَمَهُ ، فَتَسِيرُ الْيَوْمُ عَلَيْهِ غَافِلِينَ ، وَمَا أَحْرَانَا أَنْ نَسِيرَ هُونَا ،  
 لَأَنَّنَا نَسِيرُ عَلَى أَدِيمِ مَوْلَفِ مِنْ أَجْسَادِ الْآبَاءِ وَالْأَجَدَادِ ، وَأَوْلَى بِنَا أَنْ نَكْرِمَهُ وَأَنْ  
 لَا نَهْيَنَهُ حَفْظًا لِتَحْقِيقِ الْأَسْلَافِ . وَيَسْخُرُ سُغْرِيَّتِهِ الرَّائِعَةِ مِنْ أَنَّ الْحَدِيدَ الْوَاحِدَ قَدْ  
 يَضْمُنَ أَشْخَاصًا مُتَباَيِّنَينَ بَيْنَ صَالِحٍ وَطَالِحٍ وَجَاهِلٍ وَعَالَمٍ وَغَنِيٍّ وَفَقِيرٍ ، حَتَّى إِنَّ  
 الْحَدِيدَ نَفْسَهُ لِيَضْبَحَهُ وَيَعْجِبُ مِنْ اجْتِمَاعِ الْأَخْيَارِ وَالْأَشْرَارِ فِيهِ .

(١) رَفَاتٌ : الْعَلَامُ الْبَالِيَّ .

و واضح أن الآيات تحمل تلاؤمَ أبي العلاء وشكّه في الخير والشر وازدراءه للدنيا وكل ما فيها . وبعد أن بلغ بنا هذا المبلغ من السخط عليها لما تحمل من شقاء الإنسان وعذابه أخذ يعجب من يرغب فيها مع كل هذا الأذى ومن يريد أن تطول مدتة فيها مع كل هذه التعasse . وقارنَ بين السرور في الميلاد والحزن في الموت فوجد الثاني يزيد الأول أضعافاً مضاعفة ، وما الحياة كلها في رأيه إلا سجن من الحزن والضيق وغياب من الألم والعقاب .

واطمأنَت نفسه بعض الاطمئنان ، فتحدث عنبقاء الإنسان بعد الموت ، فقرر خلوده ، وردَ قول من يقول بالفناء ومن ينكرونبعث والحساب والنعيم والجحيم وبالخنة والنار ، فالناس خلقوا للأبد ولبقاء دون الفناء ، وما الموت إلا انتقال من دار إلى دار ، هي دار الخلود التي فيها يعدُّ بـالحانى الشق وينعم الراشد السعيد . وانتهى في البيت الأخير إلى تشبيه الحياة باليقطة والموت بالنوم ، وكأنه يفضل الموت على الحياة ، فالعين ترتاح إلى النوم ولا ترتاح إلى السهد ، بل تشوق به وتتعذب .

وهذه الأفكار والمعانٍ الدائرة حول الحياة والموت والخلود التي تناولها أبو العناية والمتني وأبو العلاء تعلق بها شعراء الرثاء في الأقطار الإسلامية المختلفة ، فأينما وليت وجهك رأيت أسراباً منها في رثاء الشعراء ، إذ أعجبوا بها إعجاباً لا حد له ، فذهبوا يطوفون حولها ، ويتشبّثون بها ، ويستوردون في أشعارهم منها ، وخاصة من المتني وأبي العلاء ، فقد عنتْ لهم وجوه الشعراء على مر العصور ، وأصبحوا المورد الذي لا ينفد ، والكتز الذي لا يقى .

ومن أفاد منها لعصرنا في مراثيه شوق ، فإنه عُنى بقراءة شعرهما ، والاحتداء على مثاله ، في كل ما نظم وصاغ من قصيدة . وعاشر يقلد المتني وخاصة في حكمه وكثرة ما يشير منها في شعره .

وقد نقل ظاهراً من أفكاره أبي العلاء ، وإن لم يكن له تلاؤمه ولا بؤسه ، ولكن ما يزال يعني بتقليله ونقل بعض أفكاره ، واقرأ له هذه المقدمة في رثاء جدته :

خَلَقْنَا لِلْحَيَاةِ وَلِلْمَاتِِ وَمِنْ هَذِينَ كُلُّ الْحَادِثَاتِ  
وَمِنْ يُولَدُ يَعْشُ وَيَمْتَ كَانَ لِمَ يَمْرُ خَيْالُهُ بِالْكَائِنَاتِ

وَهَدْ الرِّءُوفُ فِي أَيْدِي الرَّوَاقِ  
 كَنْعَشُ الْمُرْءَ بَيْنَ النَّاحَاتِ<sup>(١)</sup>  
 وَمَا سَلَمَ الْوَلِيدُ مِنْ اشْتِكَاءِ  
 فَهُلْ يَخْلُو الْعَمَرُ مِنْ أَذَاءِ  
 هِيَ الدُّنْيَا قَتَالٌ نَحْنُ فِيهِ  
 مَقَاصِدُ الْحَسَامِ وَالْقَنَاءِ  
 وَكُلُّ النَّاسِ مَدْفَوعٌ إِلَيْهِ  
 كَادُقُومُ الْجَبَانِ إِلَى التَّبَاتِ  
 نَرَوْعَ مَا تَرَوْعَ ثُمَّ نُرْمَى  
 بِسَمْهِ مِنْ يَدِ الْمَقْدُورِ آتَى

وَتُسْتَطِيعُ أَنْ تُلَاحِظَ الْمُشَابَهَةَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ وَبَعْضِ أَبْيَاتِ أَبِي الْعَلَاءِ  
 السَّابِقَةِ ، وَلَكِنَّهُ إِنَّمَا يَتَنَاهُ ظَاهِرًا مِنْهَا ، لَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَمِيقَ الْفَكْرِ مِثْلَهُ ، وَلَا كَانَ  
 لَهُ فَلْسَفَتَهُ وَلَا بُؤْسَهُ النَّفْسِيُّ . وَقَدْ ذَهَبَ يَكْثُرُ – عَلَى شَاكِلَةِ الْمُتَبَّيِّ – مِنَ الْحُكْمِ ،  
 وَمِنْ طَرِيفِ مَا جَاءَ بِهِ مِنْهَا فِي مَرْثِيَّةِ قَوْلَهُ فِي مَرْثِيَّةِ مُحَمَّدٍ فَرِيدٍ الَّتِي صَاغَهَا صِيَاغَةُ  
 عَلَى نَمْطِ مَرْثِيَّةِ أَبِي الْعَلَاءِ السَّابِقَةِ :

كُرْكُ الأَرْضِ كَمْ رَمَتْ صَوْلَاجَانًا  
 وَطَوْتُ مِنْ مَلَاعِبِ وَجِيَادِ  
 دُورَانُ الرَّحْنِ عَلَى صَفَحَتِهِمَا  
 وَالْغَيَارُ الَّذِي عَلَى الْأَجْسَادِ

وَيَقُولُ فِي رِثَاءِ مَصْطَفِيِّ كَامِلٍ :

دَقَّاتُ قَلْبِ الرِّءُوفِ قَاتِلَةٌ لَهُ  
 إِنَّ الْحَيَاةَ دَفَائِقٌ وَثَوَانٌ  
 فَارْفَعْ لِنَفْسِكَ بَعْدَ مَوْتِكَ ذَكْرَهَا  
 فَالذِّكْرُ لِلإِنْسَانِ عُزْرٌ ثَانٌ

وَلَكِنَّ هَذِهِ الْحُكْمُ وَمَا يَشْهُدُهَا عَنْهُ لَيْسَتْ ثُمَرَةً غَضْبٍ عَلَى الْحَيَاةِ وَلَا زَهْدٍ  
 فِيهَا ، وَهِيَ لِذَلِكَ لَا تَكُونُ هَرَوْعَتَهَا عَنْدَ الشَّعَرَاءِ الْثَّلَاثَةِ السَّابِقِينَ ، فَقَدْ كَانَ  
 الْمُتَبَّيِّ بِرَمَّا سَاخَطَا عَلَى الْحَيَاةِ بِلَ ثَائِرَا ثُورَةَ عَنِيفَةَ ، وَلِذَلِكَ كَانَ ذَمَّهُ فِيهَا  
 طَبِيعِيًّا ، وَكَذَلِكَ ذَمُّ أَبِي الْعَتَاهِيَّةِ وَأَبِي الْعَلَاءِ ، إِذْ كَانَا رَافِضِيَنِ لِهَا زَاهِدِينِ فِيهَا  
 زَهْداً حَقِيقِيًّا ، فَطَبِيعِيُّ أَنْ يَشْهُوْهُا وَأَنْ يَقْبِحُوهُا وَأَنْ لَا يَرْوَا مِنْهَا إِلَّا بَلَّاْبِ

(١) الرَّوَاقُ : الْأَمْهَاتُ تَعْلِقُ التَّنَاوِيَّةُ وَالتَّامُ عَلَى أَوْلَادِهَا .

الأسود البعيض ، أما شوق فشيء من ذلك كله لم يكن كامنا في نفسه ، ولذلك يبدو فيه التكلف والتصنّع وأن الأفكار لا تنبع من قلبه ، ولا تجري من داخله ، ولولا مهارته الموسيقية وإبداعه الفنى لبان عجزه وضعفه وتتكلفه .

وربما كان نسب عريضة الشاعر المهجري أهم المعاصرين تعبراً في رثائه عن الخلود ، قوله مرات في أغنية ، بكاه فيها ، وليس هذا مما يهمنا ، إنما يهمنا أنه وقف عند فكرة الصراع بين الجسد والروح وأطّال الوقوف نافذا إلى فكرة الخلود . وخير ما يصور ذلك مرتين «ذكرى الغريب» وهو يفتحها على هذه الشاكلة :

غريبٌ على الباب يرجو الدخولا  
أثار النوى فيه شوقاً طويلاً  
ألا أدخلوه أهيلَ الخلودِ  
إليكم ولا تُخْرِمُوه مُقِيلاً  
قضى العمرَ في التّيهِ في القرى حتى  
نفتةُ الحياةُ فألفى السبيلَا  
وأبصرَ أنواركم في اشتعالِ  
أهيلَ الخلود افتحوا فهو منكم  
وهيبات عن باكم أن يملا  
تغربَ في الأرضِ عمراً قصيراً  
ولم يك في الناس إلا دخيلاً  
تخلصَ لا آسِفاً من حمامِ  
وحطمَ أشراكهم والكبولا  
وأغفلَ في الأرضِ أهلاً ورَبَعاً  
وأنقى رداءَ الترابِ الثقيلاً

والمرثية طويلة ، وهي تدور كلها حول المعانى التى زرها هنا ، فأنجوه قد اغترب حقبة من الزمن في الأرض ، وكأنه كان في تيه أو في قفس ، ومع ذلك كان لا يزال يرقب أنوار الخلود ، ويوجه إليها مصدراً في الدرب ، وما زال يرقى على الدرج حتى قرع الباب يريد الدخول والوصول . وهذا هوذا قد وصل بعد تأيه واغترابه وبعد أن تخلص من سور التراب وأشراكه . ولاريبي في أننا نستشف هنا نزعة صوفية ، وهي تتغلغل في شعر نسيب ، وتجعل لرثائه صورة روحية جديدة في شعرنا ، تخالف الصورة التي رأيناها عند الشعراء السابقين .

---

(١) المقليل : المكان الذى نستريح فيه وقت القيلولة .

## الفهرست

### صفحة

		مقدمة
	٥ . . . . .	تهيء
١١ - ٧	. . . . .	(١) الرثاء في أدبنا العربي .
	٧ . . . . .	(٢) في الآداب العالمية .
٥٣ - ١٢	. . . . .	الفصل الأول : الندب .
	١٢ . . . . .	(١) معنى الندب .
	١٣ . . . . .	(٢) ندب الأهل والأقارب .
	٣٠ . . . . .	(٣) ندب الشعراء أنفسهم .
	٣٥ . . . . .	(٤) ندب الرسول صلى الله عليه وسلم وآل البيت الكريم .
	٤٠ . . . . .	(٥) ندب الدول .
	٤٧ . . . . .	(٦) ندب البلدان .
٨٥ - ٥٤	. . . . .	الفصل الثاني : التأيين .
	٥٤ . . . . .	(١) معنى التأيين .
	٥٥ . . . . .	(٢) تأيين الحلفاء والوزراء .
	٦٢ . . . . .	(٣) تأيين الأشرف والأجواد والقادات .
	٧٠ . . . . .	(٤) تأيين العلماء والأدباء .
	٨١ . . . . .	(٥) حفلات التأيين الحديثة .
١٠٧ - ٨٦	. . . . .	الفصل الثالث : العزاء .
	٨٦ . . . . .	(١) معنى العزاء .
	٨٨ . . . . .	(٢) العزاء في الأهل .
	٩٦ . . . . .	(٣) العزاء والتبرئة ..
	٩٩ . . . . .	(٤) الحياة والموت والخلود .

## كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

- \* الأدب العربي المعاصر في مصر الطبعة الثامنة ٣٠٨ صفحات
- \* البارودي رائد الشعر الحديث الطبعة الرابعة ٢٣٢ صفحات
- \* الشعر والغناء في المدينتين ومكة لمصر بنى أمية الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحات
- \* البحث الأدبي : طبيعته - ومتناهجه - أصوله - مصادره الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحات
- \* الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحات

### في الدراسات النقدية

- \* في النقد الأدبي الطبعة السادسة ٢٥٠ صفحات
- \* فصول في الشعر بونقيده الطبعة الثانية ٣٦٨ صفحات

### في الدراسات البلاغية واللغوية

- \* البلاغة : تطور وتاريخ الطبعة السادسة ٣٨٠ صفحات
- \* المدارس التحويية الطبعة الخامسة ٣٧٦ صفحات
- \* تجديد النحو الطبعة الثانية ٢٨٢ صفحات
- \* تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج تجديده الطبعة الأولى ٢٠٨ صفحات

### في مجموعة نواعق الفكر العربي

- \* ابن زيدون الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحات

### في الدراسات القرآنية

- \* سورة الرحمن وسور قصار عرض ودراسة

الطبعة الثانية ٤٠٤ صفحات

### في تاريخ الأدب العربي

- \* العصر الجاهلي

الطبعة الحادية عشرة ٤٣٦ صفحات

- \* العصر الإسلامي

الطبعة العاشرة ٤٦١ صفحات

- \* العصر العباسي الأول

الطبعة التاسعة ٥٧٦ صفحات

- \* العصر العباسي الثاني

الطبعة السادسة ٦٥٧ صفحات

- \* عصر الدول والإمارات (١)

المجزية العربية - العراق - إيران

الطبعة الثانية ٦٨٨ صفحات

- \* عصر الدول والإمارات (٢)

مصر - الشام

الطبعة الأولى ٨٤٨ صفحات

### في مكتبة الدراسات الأدبية

- \* الفن ومذاهبه في الشعر العربي

الطبعة العاشرة ٥٢٤ صفحات

- \* الفن ومذاهبه في النثر العربي

الطبعة العاشرة ٤٠٠ صفحات

- \* التطور والتجديد في الشعر الأموى

الطبعة السابعة ٣٤٠ صفحات

- \* دراسات في الشعر العربي المعاصر

الطبعة السابعة ٢٩٢ صفحات

- \* شوقى شاعر العصر الحديث

الطبعة العاشرة ٢٨٦ صفحات

- \* كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد  
الطبعة الثانية ٧٨٨ صفحة
- \* كتاب الرد على النحاة  
الطبعة الثانية ١٥٠ صفحة
- \* الدرر في اختصار المنازى والسير  
لابن عبد البر  
الطبعة الثانية ٣٥٦ صفحة
- في سلسلة أقرأ
- \* العقاد
- الطبعة الرابعة
- \* البطولة في الشعر العربي  
الطبعة الثانية
- \* معنى
- الطبعة الثانية
- \* الفكاهة في مصر  
الطبعة الثانية

- في مجموعة فنون الأدب العربي
- \* الرثاء  
الطبعة الثالثة ١١٢ صفحات
- \* المقام  
الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحة
- \* النقد  
الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة
- \* الترجمة الشخصية  
الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة
- \* الرحلات  
الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة
- في التراث المحقق
- \* المغرب في حل المغرب لابن سعيد  
الجزء الأول - الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة  
الجزء الثاني - الطبعة الثالثة ٥٧٢ صفحة

١٩٨٧/٣٠١٠	رقم الإبداع
الترقيم الدولي	٩٧٧-٠٢-١٩٩٠-٨
ISBN	١/٨٧/٣٠

طبع بطباعي دار المعرف (ج.م.ع.)



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



## هذه المجموعة

لقد قصد من هذه المجموعة أن تجلو للقارئ العربي ألواناً من الفنون الأدبية التي عالجها الأدب العربي في مختلف أقطاره وعصوره . فهي تغطي أمام كل فن أدبي فتعالجه في جزء أو أكثر من هذه السلسلة التي سيجتمع فيها مخصوص وأوفر من فنون الأدب المختلفة التي تكون في مجموعها ذلك الميكل الأدبي الضخم الذي شيدته العربية في تاريخها الطويل .

وفضل هذه المجموعة أنها تعالج الأدب العربي لا على طريقة السين ، ولا على طريقة التقسيم إلى عصور كما ألقنا في كتب التاريخ الأدبي ... ولكنها تعالج الأدب على مدى ما اتسع فيه من فنون ... فللمقامة موضوع ، وللقصة موضوع ، وللزلل موضوع ، وللوصف موضوع ... وهكذا تكبر هذه المجموعة على قدر ما في الأدب العربي من فنون .

